

الرسالة الأولى

من الإسكندرية إلى العربية^(١)

كان انفصالي عن الاسكندرية للوفود إلى الأندلس بسُحرة يوم من أيام سنة خمس وأربعين وثلاثمائة من هجرة المصطفى ﷺ ، الموافقة سنة ست وخمسين وتسعمائة لميلاد السيد المسيح، صلوات الله عليه، وذلك في سفينة عدولية^(٢) لأمير المؤمنين بالأندلس عبد الرحمن الناصر، لم تر قط عيني مثلها، وكان عبد الرحمن فيما بلغني مؤلماً بإنشاء السفن والأساطيل، فأنشأ هذا المركب الكبير الذي لم يُعمل مثله وسير فيه أمتعة وبضائع إلى بلاد المشرق لتباع هناك وتستبدل بها بضائع من هاتيك البلاد فمر بكثير من ثغور البحر الشامي وكان آخر ما مرّ به الاسكندرية^(٣).

ولما نزلت هذا المركب رأيت فيه كثيراً من أهل بغداد والموصل والشام

(١) العربية ويسميتها الإفرنج Almeria ثغر من ثغور اسبانيا واقع على البحر الأبيض المتوسط، وكانت زمن هذه الرحلة مرسى للسفن القادمة من المشرق القاصدة إلى القطر الاندلسي.

(٢) أي ضخمة من قول طرفة بن العبد يصف السفينة:

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى
قال في اللسان: قال الأصمعي العدولي من السفن منسوب إلى قرية بالبحرين يقال لها عدولي
ثم قال وقيل إنما هي منسوبة إلى موضع كان يسمى عدلوة.

نقول: ولعل هذا هو الأقرب إلى الصواب ولعل عدلوة هذه هي أدولي وقد جزم بذلك ويأن السفن العدولية منسوبة إلى أدولي هذه استاذنا الدكتور نالينو المحاضر كان بالجامعة المصرية، قال البستاني في دائرة معارفه: تحت كلمة «أدوليس أو أدولي» هي مدينة قديمة في الحبشة في جون من البحر الاحمر على الشاطئ الغربي وتسمى الآن زويلة وأركيكو وكانت في القرن السادس للميلاد ميناء لأكسوم.

(٣) جاء في كتب التاريخ عن هذا المركب وعن ولوع الناصر بإنشاء المراكب والاساطيل ما لا يكاد ينحرف عنه كلامنا - راجع تاريخ أبي الفداء وابن الأثير وابن خلدون.

ومصر يريدون الوفود إلى الاندلس - وممن عرفت منهم عالم لغوى أديب من أهل بغداد يعرف بأبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي^(١) وفتيه مصر أحمد ابن أبي عبد الرحمن القرشي الزهري^(٢) وفتيه مقرئ يُسمى أبا الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن بشر التميمي الانطاكي^(٣) وتاجر رُحلة من أهل الموصل يعرف بابن حوقل^(٤) وقينة اسمها فضل المدنية^(٥) وأصل هذه القينة كما أخبرتنى لإحدى بنات هارون الرشيد ونشأت وتعلمت ببغداد ونهدت من هناك إلى المدينة المشرفة فازدادت ثم طبقتها في الغناء ثم اشترت للأمير عبد الرحمن مع صاحبة لها تسمى علم المدنية وصواحب أخباريات.

وقد عقدت الغربية بيني وبين فضل صحبة - لأن الغريب كما قيل للغريب نسيب - فرأيت منها أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حلوة الشمائل معسولة الكلام - ذلك إلى حدتها في الغناء ولباقتها به مع الظرف الناصع، والجمال الرائع فكانت - صنع الله لها - سلوتنا في سفرنا وكانت تجلو هموم السفر^(٦) ومرض البحر، بما تنفثه بيننا القينة بعد القينة^(٧) من سحر الحديث الذي يأخذ بالألباب ويرتفع له حجاب القلوب.

(١) دخل أبو علي القالي الاندلس سنة ٣٣٠ هجرية أيام عبد الرحمن الناصر، سنة ٣٣٠ سنة ٣٤٥ قريبا من قريبا.

(٢) دخل هذا الفقيه المصري الاندلس العظيم سنة ٣٤٣ قال ابن حبان فاكرم الناصر مشواه وكان فقيه أهل مصر.

(٣) قال ابن الفرضي أدخل الانطاكي علي الاندلس علما جمعا وكان اماما في القراءات لا يتقدمه أحد فيها، مات بقرطبة سنة ٣٧٧.

(٤) وفد ابن حوقل على الاندلس حوال سنة ٣٦٠ ومركزك بصقلية.

(٥) جاء في نفع الطيب أنه اشترى للأمير عبد الرحمن صاحب الاندلس قينة اسمها فضل والظاهر أنه يعني عبد الرحمن الأوسط لا عبد الرحمن الناصر فليلاحظ ذلك، علي أنه جاء في كتب التاريخ أنه كان في هذا المركب - مركب الناصر - جوار مغنيات اشترين للناصر من المشرق.

(٦) أي المسافرين.

(٧) الحين بعد الحين ومثلها الخطرة بعد الخطرة.

فهو كما قال أبو حية النميرى فيمن يقول:

حديث إذا لم تخش عينا كأنه

إذا ساقطته الشهد أو هو أطيّب

لو أنك تستشفى به بعد سكرة

من الموت كادت سكرة الموت تذهب

ولما أقلعت بنا السفينة من مرسى الاسكندرية تحركت الريح الشرقية نسيمًا

فاتركا عليلا ثم غشي البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه، فعاد كأنه صرح ممرد

من قوارير فبقينا لاعبين على صفحة ماء تخاله العين، سبيكة لجين، كأننا نجول بين

سمايين، فكان لذلك منظر هو قيد النواظر وغُلَّ^(١) الألباب وشرك النفوس - تجلى

لنا فيه جمال الكون وصانعه، فكنت ترى السماء صافية الأديم، زاهرة النجوم،

وكوكب الزهرة مقبلا من ناحية المشرق يحفه الجمال والجلال، فلولا التقى لقلت

جَلَّتْ قدرته، وترى البحر كأنه مرآة مصقولة تنظر السماء فيها وجهها، فكأنما الماء

سماء، وكان السماء ماء، وترى النوتية مجدين فى التجذيف على حال لو هممت

بتشبيها بشيء حسن لا يضطرك حسنها إلى رده إليها:

مجاذف كالحيات مدت رء وسها

على وجل فى الماء كى تروى الظما

كما أسرع عداً أنامل حاسب

بقبض وبسط يسبق العين والفسما^(٢)

وفيما بين ذلك تسمع فضلا تغنى فى قبتها مواليا بغدادية ساحرة وبين يديها

مزهر تقلدته أطرافها:

تمميت به ألبابنا وقلوبنا

مراراً وتحيينهن بعد همود

(٢) البيتان لابي عمرو يزيد بن أبى خالد اللخمي الاشيلي الاندلسي.

(١) الغل القيد.

إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى

صياح جنود وجهت لجنود

ظللنا بذلك الديدن اليوم كله

كأننا من الفردوس تحت خلود

ومضى على ذلك ثلاثة أيام بلياليها كنا من أوقاتها في بلهنية^(١) من العيش،
وغفلة عن أعين الدهر، ووصال أخضر، ونعمى لا يشوبها بؤس ولا كدر، فلما كان
اليوم الرابع - ولا كان - هبت علينا ريح عاصف رمتنا بها الأقدار من حيث لا
ندرى، فأرغى البحر وازبد، وأبرق وأرعد، وتلاطمت الأمواج، واهتاجت أيما
اهتياج، وصار بها عمرك الله مثل الجنون، وتراءت في صورها المنون:

وقد ففر الحمام هناك فاه

وأتلع جیده الأجل المتاح^(٢)

فانقلب يسرنا عسرًا، وأدال الله من الحلو مرًا، وعظم الخطب، وعم الكرب،
ونحن في ذلك قعود، كدود على عود، وقد نبت بنا من القلق أمكتنا، وخرست من
الفرق ألسنتنا، وتوهمنا أنه ليس في الوجود أغوار ولا نجود، إلا السماء والماء،
وذلك السفين، ومن في قبر جوفه دفين:

البحر صعب المرام جدا لا جعلت حاجتى إليه

أليس مساء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه^(٣)

ولبثنا على هذه الحال من ظهر اليوم الرابع إلى سحره، وبعد ذلك فترت الحال
بعض الفتور، ثم جاءت ريح رخاء زجت السفينة إلى بر جزيرة اقريطش «كريد»
أهنا تزجية وأخذنا نسير في محاذاتها، فما كان إلا كلا ولا حتى وصلنا إلى مدينة

(١) رخاء لا يشوبه سوء - من البلاء.

(٢) لابن خفاجة الاندلسي - ففر فتح والحمام الموت وأتلع مد والمتاح المقدر.

(٣) المقرئ صاحب نفع الطبيب.

الخنديق^(١) إحدى مدنها ومرافئها العظيمة، فأرسينا بها ريشما نشترى منها ما يعوزنا من الخبز واللحم والماء والفاكهة.

أقريطش :

وهذه الجزيرة من جزر بحر المغرب الكبيرة، فيها مدن وقرى كثيرة، يقابلها من بر أفريقيا لوبيا، وجميع سكانها الآن مسلمون، وأميرها يسمى عبد العزيز بن شعيب من ولد أبي حفص البلوطى الاندلسى^(٢) وذلك فيما علمت أن الحكم بن هشام أمير الأندلس كان قد أمعن صدر ولايته فى اللذات، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه، وطالوت الفقيه وغيرهما، فنقموا عليه وثاروا به وبأيعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة - محلة متصلة بقصره - فقاتلهم الحكم واستلحمهم، وهدم ديارهم ومساجدهم فلحقوا بفاس من أرض العدو^(٣) وبالإسكندرية، وبعد أن أقاموا فى الإسكندرية حيناً من الدهر تلاحى رجل منهم مع جزار من سوقها فنادوا بالثار واستلحموا كثيراً من أهل البلد وأخرجوا بقيتهم وامتنعوا بها وولوا عليهم أبا حفص عمر بن شعيب البلوطى - ويعرف بأبى الفيض من أهل قرية مطروح من عمل فحس البلوط المجاور لقرطبة - فقام برئاستهم، وكان على مصر يومئذ عبد الله بن طاهر من جهة المأمون، فزحف إليهم وحصرهم بالإسكندرية فاستأنوا له فأمنهم وبعثهم إلى هذه الجزيرة - أقريطش - فعمروها وأضاءوها بنور الإسلام وشيدوا بها المعادل والحصون والمدن العظيمة مثل الخندق التى اشترينا منها خبزنا ولحمننا، وبهرنا ما رأينا فيها من حضارة العرب وعز الإسلام، ولا يزال أميرها إلى اليوم - وهو سنة خمس وأربعين وثلاثمائة - من ولد أبى حفص

(١) كنديه Candia.

(٢) كل ما ذكر عن كريد تاريخى حقيقى.

(٣) مراکش.

البلوطى، وهو الأمير عبد العزيز بن شعيب، أدام الله عليه ملكه، وأبعد عنه كيد الأعداء.

ولما أقلعنا عن بر جزيرة أقریطش أسعدت الريح، وأصحت السماء، ونام عنا البحر، وأخذت السفينة تشق اليم، شق الجلم^(١) وأخذنا فى سمت جزيرة صقلية (Sicily) وما زلنا حتى قطعنا سبعمائة ميل فى مدى أربعة أيام بلياليها.

ولما قاربنا صقلية وصرنا منها أدنى ذى ظلم^(٢) أخذت أعيننا أشباحاً كالأعلام تسير على وجه الماء تنضم إلى بعضها تارة وتنصاع كسرب القطا أخرى، فتساءلنا، فقيل لنا إن هذا أسطول المعز لدين الله أبى تميم معد العبيدى يغدو ويروح بين صقلية وبين قَلُوربه (Calabria) من بر الأرض الكبيرة «أوروبا» فاغتبط بهذا المنظر تاجر مغربى أديب من أهل المهديّة، نزل معنا من أقریطش بنية الوفود إلى صقلية، وأخذت منه هزة الطرب حين رأى أسطول بلده، ورفع عقيرته - وقد أنافت برأسه النُعمرة - نعمة العصية - قائلاً: لله أبو القاسم محمد بن هانىّ الاندلسى شاعر سيدنا المعز لكأنه يرى ما نرى الآن حين يقول، فى هذا الاسطول:

اما والجوارى المنشآت^(٣) التى سرت

لقد ظاهرتها^(٤) عدة^(٥) وعديد^(٦)

(١) المقص.

(٢) أقرب شيء إليها تقول إنه لأول ذى ظلم لقيته إذا كان أول شيء سد بصرك بليل أو نهار ومثله لقيته أول وهلة وأول صوك وبوك.

(٣) السفن.

(٤) حاوتنها.

(٥) عدد وآلات.

(٦) اناس متعددة كثيرة - جنود.

قباب^(١) كما ترخى القباب على المَهَا^(٢)
 ولكن من ضمت عليه أسود
 عليها غمام مكفهر صبيره^(٣)
 له بارقات جمّة ورعود
 أنافت بها أعلامها^(٤) وسمالها
 بناء على غير العراء مَشِيد
 من الراسيات الشم لولا انتقالها
 فمنها قنان شمخ وريود^(٥)
 من الطير إلا أنهن جوارح
 فليس لها إلا النفوس مصيد
 من القادحات النارُ تضرم للصلى
 فليس لها يوم اللقاء خمود
 إذا زفرت غيظًا ترامت بمارج
 كما شب من نار الجحيم وقود
 فأفواههن الحماميات صواعق
 وأنفاسهن الزافرات حديد

(١) جمع قبة.

(٢) جمع مهاة وهى فى الأصل البللورة التى تبص لشدة بياضها أو الدرّة ثم اطلقت على بقرة الوحش على التشبيه لبياضها ثم هم يشبهون المرأة بالمهاة فى البياض يعنون البللورة أو الدرّة وإذا شبهت بها فى العينين فإنما يعنى بها البقرة يقول كما ترخى القباب على النساء.

(٣) الصير السحاب الأبيض.

(٤) راياتها.

(٥) القنان جمع قنة وهى أعلى الجبل والريود جمع ريد بفتح الراء الحرف الناتى من الجبل.

لها شعل فوق الغمار^(١) كأنها
 دماء تلقنتها ملاحف سود
 تعانق موج البحر حتى كأنه
 سليط له فيه الذبال عتيد^(٢)
 ترى الماء فيها وهو قان عبابه
 كما باشرت ردع الخلق جلود^(٣)
 فليس لها إلا الرياح أعنة
 وليس لها إلا الحباب كديد^(٤)
 وغير المذاكى نجرها^(٥) غير أنها
 مسومة تحت الفوارس قود
 رحيبة مد الباع وهي نتيجة
 بغير شوى^(٦) عذراء وهي ولود^(٧)
 تكبئرن عن نقع^(٨) يشار كأنها
 موال^(٩) وجرد الصافنات عبيد

(١) الغمار جمع غمر الماء الكثير.

(٢) السليط الزيت والذبال الفتائل وعتيد معد حاضر.

(٣) الخلق الزعفران والردع اللطخ بالزعفران وقان أى احمر والمعنى ظاهر.

(٤) الكديد تراب حلبة الخيل.

(٥) يقول ليست من الخيل لأن المذاكى الخيل والنجر الاصل.

(٦) يقول أنها رحيبة مد الباع مع أنها من غير قوائم فالشوى قوائم الفرس.

(٧) عذراء لأنها لم تتركب قبل وولود لأنها تحمل ناساً فكان الجنود فيها أولادها وهذا من قول

مسلم بن الوليد.

كشفت اهاويل الدجى عن مهولة بجارية محمولة حامل بكر

(٨) غبار.

(٩) المولى السيد.

- لها من شقوق العبقري ملابس (١)
 مفوفة (٢) فيها النضار جسيده (٣)
 كما اشتملت فوق الارائك خرد (٤)
 أو التفعت فوق المنابر صيد (٥)
 لبوس تكف الموج وهو غطامط (٦)
 وتدرأ باس اليم وهو شـسـديد
 فمنه دروع فوقها وجواشن (٧)
 ومنها خفاتين (٨) لها وبرود

وإنا لفي ذلك إذ رأينا قلوورية من بر الأرض الكبيرة عن يميننا، وبر جزيرة صقلية عن يسارنا، ثم دخلنا المجاز الذي بينهما، فرأينا بحراً صعباً ينصب انصباب العرم، ويغلى غليان المرجل، لشدة انحصاره وانضغاطه، فاستمر مركبنا في سيره والريح الجنوبية تسوقه سوقاً عنيفاً، فلما شارفنا مدينة ريو (Reggio) وقد كان الليل مظلماً ربوض النواحي ضربت في وجوهنا ريح انكصتنا على الأعقاب، وحالت بين الأبصار والارتقاب، وتتابعت علينا عوارض ديم صرنا منها ومن الليل والبحر في ثلاث ظلم، وعباب البحر توالى صدماته، وتطفّر الأبواب رجفاته،

(١) الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق والعبقري موضع تزعم العرب أنه في أرض الجن قالوا: وتوشى فيه البسط وغيرها ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه وجودة صنعه وقوته ويقال: ثياب عبقرية من هذا.

(٢) مفوفة فيها خيوط بيض.

(٣) النضار الذهب والجسيده الدم.

(١٤) جمع خريدة وهي من النساء البكر التي لم تمس أو الحية الطويلة الكوت الخافضة الصوت الخفرة. (٥) ملوك.

(٦) أي عظيم - كثير الماء.

(٧) الجواش القمصان.

(٨) نوع من الثياب.

فقطعتنا هذه الليلة البهماء في مقاساة أهوال تجعل الولدان شيئا^(١) ثم تداركنا صنع الله مع السحر، ففترت الريح، ولان متن البحر وجاءت ريح رخاء زجت المركب تزجية حسنة إلى مدينة ريو.

وكان ذلك في فجر اليوم التاسع ليوم انفصالنا عن الاسكندرية، وما أرسى المركب على هذه المدينة حتى ألقع عنها كيلا يحسه اسطول العبيدين ويثار منه، وذلك فيما علمت أن المركب الأندلسي كان قد تحرش وهو ذاهب إلى بلاد المشرق بمركب للمعز فيه كتب ورسائل - فقطع عليه المركب الأندلسي وأخذه بما فيه^(٢) فتملكنا الذعر لذلك الخبر، ونزت قلوبنا خوفا على أنفسنا - ومن ثم اعتزمت أن أنزل من هذا المركب على أقرب بلد يرسى عليه، وكذلك نزلت منه عند إرسائه على هذه المدينة وحمدت الله الذي لا يحمد على المحبوب والمكروه سواه.

* * *

يبدأني ما انفصلت عن المركب حتى انفصل عني قلبي وسار مع من فيه وأصبحت على حد قول القائل:

هواي مع الركب اليماني مُصعدٌ

جنيب وجثمانى بمكة موثق

ذاك انفصالي عن فضل المدينة التي هي مراد السمع ومرتع النفس وريع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكتيب وأنس الوحيد وزاد الراكب، ولا بدع فهناك الجمال الرائع والظرف البارع والشباب البض، والأدب الغض، ورقة الحاشية، وخفة الناحية، وعذوبة المعاشرة، وحلاوة المحاضرة:

(١) ابن جبير.

(٢) ابن خلدون.

وحديثها السحر الحلال لو أنه
 لم يجن قتل المسلم المتحرز
 إن طال لم يملل وإن هي أوجزت
 ود المحدث أنها لم توجز
 شرك العقول ونزهة ما مثلها
 للمطمئن وعقلة المستوفز

فكان لفظ حديثها قطع الرياض كسبين زهرا
 وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
 حوراء إن نظرت إلي لك سقتك بالعينين خمرا
 تنسى الفوى معاده وتكون للحكماء ذكرا

* * *

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
 متأخر عنه ولا متقدم
 أجد الملامة في هواك لذيدة
 حبا لذكرك فليلمني اللوم

* * *

وما أنس من الأشياء لا أنس صوتها العذب الذي كأنه مجاج النحل، وغناءها
 الحبيب إلى النفوس حتى كأنها خلقت من كل قلب، فهي تغني لكل ما أحب، ولقد
 كان يخيل إلينا وهي تغنينا في المركب أنا في الفردوس بطربنا نبي الله داود.
 إذا هي غنت أبهت الناس حسنهما
 وأطرق اجلالا لها كل حاذق

* * *

غنت فلم تبق في جارحة

إلا تمننت بأنهما أذن

* * *

تغنى كأنها لا تغنى

من سكون الأوصال وهي تجيد

مد في شأو صوتها نفس كما

ف كأنفاس عاشقها مديد

وأرق الدلال والفنج منه

وبراه الشجبا فكاد يببىد

فتراه يموت طورا ويحيى في

مستلذ بسيطه والنشيد

في هوى مثلها يخف حلیم

راجع حلمه ويقوى رشيد

خلقت فتنة غناء وحسنا

ما لها فيهما جميعاً نديد

* * *

وأين لا أين مزهرها الذي كان صوته صرير باب الجنة والذي كانت إذا تناولته لتضرب على أوتاره فكانما تتنظم قلوبنا لتضرب على أوتارها، وهكذا هكذا فليكن الغناء وسماعه، وهل خلقت الأغاني، لعمر إلهك إلا للغواني! وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله، وبين أن تسمعه من فم تشتهى أن تشيح بوجهك عنه! وأيهما أملح وأجمل - أن يغنيك فحل ملتف اللحية وشيخ منخلع الأسنان متغضن الوجه - أو تغنيك كطاقة نرجس أو آس، وكأنها حورية أبقّت من رضوان، خازن الجنان، فأه من جمالها وآه من حديثها وآه من غنائها وآه من مزهرها، ولكن نزلت ريو وفارقتني فضل، والله الأمر من بعد ومن قبل:

يا وحشتنا في البلد الذ

خازح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا

بالعيش من بعده ولا انتفعوا

يقول في نأيه وغربته

عدل من الله كل ما صنعا

* * *

وهذه ريو هي مدينة عظيمة من مدائن جزيرة قلورية من بر الأرض الكبيرة، واقعة على مجاز مسيني، بينها وبين مسيني نحو من عشرة أميال، وبها مسجد كبير

بناه في وسطها أبو الغنائم الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي والى صقلية كان من قبل المنصور العبيدي بعد أن اكتسح بلاد قلورية جميعاً وتغلغل في أحشائها وشيد بها المعاقل والحصون وأرغم أنوف أهلها من الروم، وذلك فيما بلغنى أن الانبرور^(١) صاحب القسطنطينية كان قد أرسل سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة بطريقاً في البحر في جيش عرمرم إلى جزيرة صقلية فأرسل الحسن إلى المنصور العبيدي يعرفه الحال فأرسل إليه اسطولاً فيه سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل سوى البحرية، وجمع الحسن إليهم جمعاً كثيراً وسار من بلرم قسبة صقلية في البر والبحر فوصل إلى مسيني وعبرت العساكر الإسلامية إلى ريو هذه وبث الحسن سراياه في أرض قلورية ونزل هو على بلد يسمى جراحة وحاصرها أشد حصار حتى أشرف أهلها على الهلاك من شدة العطش، وإنه لفي ذلك إذ وصله الخبر أن الروم قد زحفوا إليه فصالح أهل جراحة على مال أخذه منهم وسار إلى لقاء الروم فقروا من غير حرب إلى مدينة تدعى بارة ونزل الحسن على قلعة تعرف بقلعة قسانة وبث سراياه إلى قلورية وأقام عليها شهراً فسألوه الصلح فصالحهم على مال أخذه منهم ودخل الشتاء فرجع الجيش إلى مسيني وشتى الاسطول بها، فأرسل إليه المنصور يأمره بالرجوع إلى قلورية فسار الحسن وعبر المجاز إلى جراحة فالتقى المسلمون والروم يوم عرفة سنة أربعين وثلاثمائة فاقتلوا أشد قتال رآه الناس فانهزمت الروم وركب المسلمون اكتافهم إلى الليل وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابهم ثم دخلت سنة إحدى وأربعين فقصد الحسن جراحة فحاصرها فأرسل إليه الانبرور يطلب منه الهدنة فهادنه وعاد الحسن إلى ريو وبنى بها مسجداً كبيراً في وسطها وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة فيه والأذان وأن لا يدخله نصراني ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو

(١) الامبراطور.

آمن سواء كان مرتدًا أو مقيمًا على دينه وإن أخرجوا حجرًا منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وافريقية فوفى الروم بهذه الشروط كلها ذلة وصفاراً^(١).

* * *

أما قلورية فهي جزيرة كبيرة داخلية في البحر مستطيلة شرقي جزيرة صقلية وأهلها افرنج ولها بلاد كثيرة وأرض واسعة ينسب إليها فيما أحسب أبو العباس القلورى حدث عنه أبو داود السجستاني في سننه^(٢) وقد غزى المسلمون أزمان بنى الأغلب هذه الجزيرة وأرض انكبردة «لومبارديه» وامنوا فيهما واستولوا على مدينة بارة^(٣) الواقعة على جون البنادقين^(٤) أيام قارله^(٥) انبرور الفرنج، وكذلك استولوا على مدينة طارنت من أرض أنكبردة ومدينة ملف وقلعة قسانه وبلدانا أخرى، وقرعوا أبواب رومة العظيمة، وغنموا منها غنائم لا يستقام لها قيمة^(٦) وضربوا الجزية على البابا عظيم النصرانية - وذلك عدا أنهم فتحوا مدينة جنوة الواقعة على خليج الجنوين وأكثر جزائر هذا البحر الرومي - وجملة القول أن المسلمين أثنخوا في بلاد الأرض الكبيرة والحوافى قهرها، وغلبوا أممها على أمرها، وضربت اساطيلهم بجزائر هذا البحر ضراء الضياغم بفرائسها، وأدبل لهم بها من املاكها^(٧) واناسها، وذلك كله بما قوى عزائمهم من الحق واليقين، وألف بين قلوبهم من وشائج هذا الدين وبما ألجأتهم إليه الحال، وامتلاكهم لسيف^(٧)

(١) ابن الاثير.

(٢) معجم البلدان.

(٣) جاء في دائرة معارف البستاني ما يأتي: هي مدينة فى إيطاليا على شبه جزيرة صغيرة فى بحر ادرياتيك - إلى أن قال: وفى عهد شارلمان كانت بارة أكبر حصن للعرب على هذا البحر.

(٤) بحر الادرياتيك.

(٥) هو شارلمان وانبرور أى امبراطور.

(٦) لا تقدر قيمتها نفاسة.

(٧) ملوكها.

(٨) السيف ساحل البحر والجمع اسيايف.

هذا البحر الجرم الأهوال، مما احكمهم وأشغفهم بحبه، وجعل لهم درية بركويه
 وحريره، واغراهم بانشاء الاساطيل فيه ينقضون بها على جزائره التى يخطئها العد
 والاحصاء وعلى عدوته الشمالية^(١) وهى أمنع من العقاب فى أجواز الفضاء،
 وعلى أهلها من أمم الفرنجة وهى أعز وأبعد مثالا، وإن كان للمسلمين:

شرف ينطح السماك بروقيه وعز يقلقل الاجبالا
 وهم البحر ذو الغوارب إلا أنه صار عند بحرك آلا

* * *

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول يتحاشون ركوب البحر حتى كان من
 عمر بن الخطاب لما كتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر يستوصفه البحر
 فكتب إليه عمرو فيما كتب: إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على
 عود - أن أوعز بمنع المسلمين من ركويه فتخرجوا منه وعبروا على ذلك حيناً من
 الدهر، حتى إذا كان لعهد معاوية أذن فى ركوب اثباجه، والجهاد على متون امواجه
 وذلك لأن العرب لبداوتهم لم يكن لهم مران عليه وحلق بركويه بينما الروم
 والفرنجة لممارستهم احواله ومرباهم فى التقلب على احواله للحرب والاتجار
 مرونا عليه واحكموا الدرية بثقافته والحرب فى أساطيله حتى كان من ذلك أن اغار
 الروم من العدو الشمالية على أفريقية من العدو الجنوبية والقوط على المغرب
 منها - اجازوا فى الاساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم
 أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة، وطنجة وكان صاحب قرطاجنة
 من قبلهم يحارب صاحب رومه ويبيعت الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر
 والعدد - فكان ذلك ديدن أهل هذا البحر الساكنين حفاقيه فى القديم والحديث
 فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم الاعاجم خولا لهم

(١) سواحل أوربا الجنوبية.

وتحت أيديهم ومت إليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، شروا إلى الجهاد فيه فأنشأوا السفن والاساطيل وشحنوها بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من هذه الأمم الحمراء، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس، فاوزع عبد الملك بن مروان إلى حسان بن النعمان عامل أفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله بن الأغلب كما سيمر بك، ثم تسلسل الأمر حتى بلغ شأن الاساطيل عند العبيديين أصحاب أفريقية وعند بنى أمية بالأندلس مبلغاً غلبوا معه على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه وصار لا قبل لامم النصرانية باساطيلهم به وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل منه مثل أقریطش وصقلية وقبرص ومالطة وقوصرة وسردانية وميورقة ومنورقة ويابسة^(١) كما سيمر بك، إن شاء الله.

* * *

ولقد كان من أجل عناية العبيديين وبنى أمية بشأن الاساطيل وتفوقهم فى ذلك على سائر الممالك الإسلامية للسبب الذى قدمناه وهو وجودهم على ضفاف هذا البحر - أن انبعثت قرائح الشعراء فى الأندلس وأفريقية بالقول فى وصف الاساطيل، واختص أدباء هذين القطرين بهذا الباب من الوصف حتى لا تكاد تجد لشعراء المشرق يدأ فيه - ومن أحسن ما سمعناه لشعراء المغرب فى الأسطول دالية أبى القاسم محمد بن هانىء الشاعر الأندلسى المنقطع الآن للمعز العبيدى

(١) ابن خلدون.

وقد تقدمت في صدر هذه الرسالة، وبائية على بن محمد الايادي التونسي شاعر
القائم العبيدي وهي دون الدالية، وفيها يقول:

شرجوا جوانبه مجاذف أتعبت
شأو الرياح لها ولما تمعب
تنصاع من كئيب كما نفر القطا
طورا وتجتمع اجتماع اليرب
والبحر يجمع بينها فكانه
ليل يقرب عقربا من عقرب
وعلى كواكبها أسود خلافة
تختال في عدد السلاح المذهب
فكانما البحر استعمار بزيم
ثوب الجمال من الربيع المعجب
ومنها في وصف الشراع:

ولها جناح يستعمار يطيرها
طوع الرياح كراحة المستطرب
يعلو بها حذب العباب مطارة
في كل لج زاخر مفلولب
يسمو بأجرد في الهواء متوج
عريان منسوج الذؤابة شوذب^(١)
يتنزل المـسـالـح منه ذؤابة
لورام يركبها القطا لم يركب

(١) طويل.

فكأنما رام استراقه مقعد
 للسمع إلا أنه لم يشهب
 وكأنما جن ابن داود هُمُ
 ركبوا جوانبها بأعنف مركب
 سجروا جواحم نارها فتقاذفوا
 منها بالسن مارج متلهب
 من كل مسجور الحريق إذا انبرى
 من سجنه انصلت انصلات الكوكب
 عريان يقذفه الدخان كأنه
 صبح يكر على الظلام الغيب

إلى أن قال:

ولواحق مثل الأهله جنح
 لحق المطالب فائتات المهرب
 يذهبن فيما بينهن لطافة
 ويجئن فعل الطائر المتقلب
 كضمانض الحيات رحن لواعبًا
 حتى يقعن ببرك ماء الميزب

«ويعد» فإن لشعراء المغرب من بارع القصيد في هذا الباب ما لا يحصى
 كثرة، وما ينم عن عظمة الاساطيل عند الدول الإسلامية وبلوغها لديهم الشأو الذي
 لا يلحق حتى وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه من الصولة واتساع الملك
 وضحامة السلطان.

ومن هنا تعرف مكان الأساطيل من الدول ولا سيما دول البحار مثل الدول الإسلامية لمهدنا، وأن الاسطول هو سياحه الدولة وعمادها، وبه عزها وعليه بعد الله اعتمادها، بل هو درعها المسرودة التي تتقى بها سهام الاعداء وتحول وسلاحها الذي تطول به في البحر وتصل، وجناحها الذي تطير به في سماء المجد وتجول، وإن دولة لم تعن العناية كلها بالأساطيل، وترسلها على متن هذا البحر طيراً أبابيل، هي لعمري دولة مقصوفة الجناح، وكالأعزل يقتحم الهيجاء بغير سلاح.

وما خير كف أمسك الغلُ اختها

وما خير سيف لم يؤيد بقائم

* * *

ولما نزلت على ريو أخذت سمتى إلى مسجدها الجامع لأصلى فيه صلاة الصبح وأثلج صدرى ببرد التقى وشعائر الإسلام، وأجلو بعضاً من وعشاء السفر الزؤام، وما زلت حتى أخذت عيني بناء شاهقا تعتم مآذنته بالعماء، كأنما تبث حديثاً إلى ملائكة الله فى السماء، أو كأنها تعلن برفعها رفعة الإسلام، وعزة أهله على عبد الطاغوت والاصنام، وكذلك رأيت كل من مر بهذا المسجد من الروم أغضى من مهابته ذلة وصفاراً، وإجلالا لدين الله واكباراً، مما ألقاه فى قلوبهم من الرعب واختشاء المسلمين أبو الغنائم الحسن بن على، رحمه الله.

* * *

ولما توسطت باحة المسجد رأيت صفوف المصلين من الرجال وإمامهم فى المحراب، كسطور أمامها عنوان الكتاب، وخلف الرجال حاجز من خشب يليه صفوف المصليات من النسوان، كما تكون هوامش الصفحة يفصلها من سائرهما أحمر من المداد قان، فانضمت إلى صفوف المصلين، وصليت معهم صلاة

الصحيح، ولما أن سلم الإمام وكان قائداً من قواد العرب فى هذه البلاد - وكذلك كان أئمة المسلمين فى الحروب والسياسات، أئمة لهم فى التقى والصلوات، قام واتكأ على سيفه وقال^(١):

أيها العرب أنتم الآن بين ظهرائى عدو يلندد^(٢) يتجرع منكم الغُصص، ويتحين بكم الفرص، ويود لو يبذلنكم الله ضعفاً من قوة، وضنا بنفوسكم من فتوة^(٣) وهزيمة من ظفر، واستحالة لصفوكم إلى كدر، فيثب بكم وثبة الغضنفر نال منه الجوع والسَّعار^(٤) ويسعل بكم كما يسعل هذا البركان فيرمى بحممه والشرار، فإذا فترت منكم الهمم، ووهت العزائم، وأغمدتم السيوف فى الأجفان، وقعدتم عن نصر الله فى كل آونة وكل مكان، وسكتتم إلى الترف والنعيم وجرتم معاذ الله عن النهج القويم، ودب إليكم ما قد دب إلى هذه الأمم الحمراء، من الحسد والبغضاء، فإنكم صائرون لا محالة إلى ما قد صاروا إليه، وإذ ذاك يُصيركم الله بعد نصركم، فلا^(٥) ويدل من عزكم ذلاً، ومن كُثركم قُلاً، وتيئضون بعدُ على هذا العالم كلاً^(٦).

* * *

وبعد أن فرغ من كلامه خرج وخرج معه رجاله وعلوا متون الجياد وذهبوا إلى حيث يعلون كلمة الدين، ويذيعون التقى والحق واليقين، وينسفون دعائم الشرك والإلحاد، ويفكون أغلال الظلم من رقاب العباد.

مستمسكين بحق قائمين به إذا تلون أهل الجور ألوانا

(١) هذه الخطبة من وضعنا، وإنما نقصد تصوير ذلك العصر من جميع جوانبه.

(٢) ألد شديد الخصومة.

(٣) بذل وكرم والمراد كما هو ظاهر بذل النفس.

(٤) شدة العطش.

(٥) منهزمين.

(٦) عالة وثقلا.

ولما أن قضيت صلاتي خرجت من المسجد وقصدت إلى مرسى السفين فوجدت ثمت مركباً يريد أن يعبر إلى جزيرة صقلية فنزلته ثم ألقع وعبر بنا إلى مدينة مسيني إحدى مدائن هذه الجزيرة، وأرسي فيها على مرسى عجيب يأخذ بالألباب، وذلك أن أكبر ما يكون من السفن يرسي من الشاطئ بحيث يتناول ما فيها من البر بالأيدي^(١).

* * *

وقيل أن نسترسل في القول على مدينة مسيني وسائر البلدان التي مررت بها في هذه الجزيرة العجيبة نذكر لك شيئاً من تقويمها وتاريخها حتى تكون على بينة من أمرها إن شاء الله.

صقلية :

هي جزيرة في البحر كبيرة على شكل مثلث متساوي الساقين، زاويته الحادة من غربي الجزيرة، بينها وبين ريو وبلاد قلورية من بر الأرض الكبيرة مجاز مسيني حيث يترواح البحر بين ستة أميال وعشرة أميال، وبين ذنبها الغربي وبين تونس نيف وستون ميلاً، وزاويتها الجنوبية تقابل بر طرابلس من أفريقية، وبالقرب من زاويتها الشمالية جزيرة صغيرة فيها بركان النار الذي لا يعلم في العالم أشنع منظراً منه، وهذا بركان اسم لجبلين أحدهما هذا والثاني في صقلية نفسها في أرض خفيفة التربة كثيرة الكهوف ولا يزال يصعد من ذلك الجبل لهب النار تارة والدخان أخرى، ومن ثم كانت كثيرة الزلازل بحيث يكثر تهدم أبنيتها منها، وسيمر بك قريباً قول ضاف في هذا المعنى.

* * *

وقد كانت هذه الجزيرة قبل الفتح خاملة قليلة العمارة وكانت من عمالات الروم وأمرها راجع إلى الانبرور صاحب قسطنطينية، وكان عليها وال من قبل هذا الانبرور يسمى قسطنطين، وكانت أفريقية^(١) تحت ولاية زيادة الله بن الأغلب، كان واليا عليها من قبل المأمون ابن هارون الرشيد فلما كانت سنة ثنتي عشرة ومائتين استعمل الانبرور على الاسطول قائدا روميا يسمى فيمي، وكان حازماً شجاعاً، فغزا سواحل أفريقية وعبث فيها وبقي هناك مدة وبعد ذلك كتب الانبرور إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي وتعذيبه، فمى الخبر إلى فيمي فانتقض وتعصب له أصحابه وسار إلى مدينة سرقوسة إحدى مدائن صقلية فملكها فسار إليه قسطنطين فالتقوا واقتلوا فانهزم قسطنطين إلى مدينة قطانية فسير إليه فيمي جيشاً فقبضوا عليه وقتلوه واستولى فيمي على صقلية وخوطف بالملك وولى على ناحية من الجزيرة رجلا اسمه بلاطة فاتفق بلاطة هو وابن عم له يسمى ميخائيل كان واليا على بلزم وجمعا عسكرياً كثيراً وقاتلا فيمي فانهزم فيمي وركب في أسطوله إلى أفريقية مستنجدا بزياة الله بن الأغلب فسير معه أسطولاً عظيماً في تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل واستعمل عليهم أسد بن الفرات - قاضى القيروان ومن أصحابه مالك بن عيسى وهو مصنف الأسدية فى الفقه على مذهب مالك - وأقلعوا من سوسة^(٢) فوصلوا إلى مدينة مازر من صقلية وساروا إلى بلاطة الذى قاتل فيمي فهزموه والروم الذين معه وغنموا أموالهم وهرب بلاطة إلى قلورية فقتل واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة وجرت وقائع كثيرة بين الروم والمسلمين امتدت سنين طوالا وانتهت باستيلاء المسلمين على جميع جزيرة صقلية - وبقيت صقلية بيد بنى الأغلب يتناوبها عمالهم إلى أن أدال الله منهم

(١) تونس والجزائر وطرابلس الغرب.

(٢) هى الآن من أعمال ولاية تونس واقعة على البحر الأبيض المتوسط على مسافة ١١٠ كيلو مترا من تونس إلى الجنوب الشرقي.

للعبيديين ودانت لعبيد الله المهدي أفريقية وما إليها فأخذوا يعيشون عمالهم عليها إلى أن كانت فتنة أبي يزيد^(١) وشغل أبي القاسم القائم والمنصور العبيدي من بعده بأمره - فلما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المنصور على صقلية لأبي الغنائم الحسن بن أبي الحسين بن علي الكلبى - وكان له فى الدولة محل كبير وفى مدافعة أبي يزيد غناء عظيم - فمهد الأمور للعبيديين وغزا بلاد قلوورية وأقام والياً على صقلية وما إليها إلى أن استأثر الله بالمنصور وقام بالأمر من بعده ولده المعز

(١) أبو يزيد الخارجى هو رجل من زناته واسم والده كيداد من مدينة توزر من بلاد قسطنطينية بأفريقية فولد له أبو يزيد بتوزر من جارية سوداء ونشأ أبو يزيد فى توزر وتعلم القرآن وسار إلى تاهرت وصار على مذهب اتلنكارية وهو تكفير أهل الملة واستباحة أموالهم ودمائهم والخروج على السلطان ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة ست عشر وثلاثمائة ودعا أهل تلك البلاد فأطاعوه وكثر جمعه فى أيام القائم ابن المهدي فحصر قسطنطينية ثم فتح تبسه ثم سيية وصلب عاملها ثم فتح الأريس فأخرج القائم جيوشاً لحفظ رقادة والقيروان فهزمهم أو يزيد واستولى على تونس ثم على القيروان ورفاده ثم سار أبو يزيد إلى القائم فجهز إليه القائم جيشاً فجلى بينهم قتال كثير وأخيراً انهزمت جيوش القائم فسار أبو يزيد وحصر القائم بالمهدية وضابقتها وغلا بها السعر وعدم القوت ولم يزل حتى رحل عنها ورجع إلى القيروان وفى أثناء ذلك توفى القائم وملك ابنه المنصور فجهز المنصور العساكر وسار بنفسه إلى القيروان واستعادها من أبي يزيد وانهزمت عساكر الخارجى وسار المنصور فى أثره فأدركه على مدينة باغاية فهرب الخارجى من موضع إلى آخر حتى وصل طبة وهرب حتى وصل إلى جبل للبرب يسمى برزال والمنصور فى أثره واشتد على عسكر المنصور الحال فرجع المنصور إلى بلاد صنهاجه وبلغ إلى موضع يسمى قرية عمره واتصل به هناك الأمير زيرى الصنهاجى وهو جد ملوك بنى باديس فآكرمه المنصور غاية الأكرام ثم رحل إلى المسيلة وكان قد اجتمع إلى أبي يزيد جمع من البربر وسبق المنصور إلى المسيلة فلما قدم المنصور إليها هرب عنها أبو يزيد إلى جهة بلاد السودان فاقتفى المنصور أثره حتى قابله فاقتتلوا فانهزم أبو يزيد وأخذت أنقاله فالتجأ إلى قلعة كمامة وهى منيعة فحاصرها المنصور ودوام الزحف عليها إلى أن ملكها عترة فهرب أبو يزيد من القلعة من مكان وعرف فسقط منه فأخذوه وحملوه إلى المنصور فسجد المنصور شكراً لله وكثر تكبير الناس وتهليلهم وبقي أبو يزيد فى الأسر مجروحاً فمات فى المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فسلخوا جلده وحشوه بنا وكتب المنصور إلى سائر البلاد بالفتح ويقتل أبي يزيد وعاد إلى المهدية، وكان أبو يزيد قصيراً اعرج قبيح الصورة يلبس جبة صوف قصيرة. اهـ. ملخصاً من ابن خلدون.

لدين الله أبو تميم معد فسار الحسن إليه بأفريقية سنة إحدى وأربعين واستخلف على ما وراءه ابنه أبا الحسين أحمد، ولا يزال هذا الأمير أيده الله والياً على صقلية وما إليها إلى اليوم وهو سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ومقامه ببلزم حضرة هذه الجزيرة.

* * *

وهذه الجزيرة جُدُّ خَصِيَّة^(١) وكلاهما لا ينقطع في صيف ولا شتاء، وهي كثيرة الأمواه والعيون والفواكه والأرزاق^(٢) وجبالها كلها مشمرة بالتفاح والشاه بلوط^(٣) والبندق والاجاص، ومنها يجلب الجوز والقسطل إلى بلاد أفريقية ويجلب منها كثير من القطن - وفيها معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق^(٤) وهي مستبحرة العمران كثيرة المدن والقرى والضياع، فقد أخبرني ثبت ثقة أن بهذه الجزيرة مائة وثلاثين بلداً^(٥) بين مدينة وقلعة عدا ما فيها من الضياع والمنازل والبقاع - وكلها منسكونة بالمسلمين، ملأى بالمساجد والفنادق والحمامات، وفيها من العلماء والفلاسفة والأدباء، ما لا يكاد يدركه العد والإحصاء^(٦) ومن مشهور مدائنها مدينة بلرم قصبة هذه الجزيرة، وسيأتي القول

(١) خصية جدا.

(٢) كتاب الجغرافية لابي عبد الله محمد بن ابي بكر الزهرى.

(٣) هو المعروف فى مصر بأبى فروة.

(٤) نزهة المشتاق ورحلة ابن جبير ومعجم البلدان.

(٥) معجم البلدان.

(٦) انجبت جزيرة صقلية كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والاطباء ممن لهم شأن فى الادب العربى واكثرهم كان بعد زمن الرحلة، ولا بأس بإيراد بعض مشهورهم هنا حتى تكون هذه الرسالة وحواشيها مغنية فى هذا الباب.

فمن علماء هذه الجزيرة أبو القاسم على بن جعفر السعدى الصقلى المعروف بابن القطاع - قال ابن خلكان: كان أحد أئمة الأدب خصوصاً اللغة وله تصانيف نافعة منها كتاب الأفعال أحسن فيه كل الاحسان وهو أجود من الأفعال لابن القوطية وإن كان ذلك قد سبقه إليه، وله كتاب ابنة الأسماء جمع فيه فواعى وفيه دلالة على كثرة اطلاعه وله عروض حسن جيد،

وكتاب الدرّة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة (أى شعراء جزيرة صقلية) وكتاب
لملح الملح جمع فيه خلقاً من شعراء الأندلس - وكانت ولادته في العاشر من صفر سنة ثلاث
وثلاثين وأربعمائة بصقلية، وقرأ الأدب على فضلاتها كابن عبد البر اللغوي وأمثالها وأجاد في
النحو غاية الإجابة ورحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الإفرنج ووصل إلى مصر في
حدود سنة خمسمائة وبالف أهل مصر في إكرامه - ومن شعره في الثغ:

وشادن في لسانه عقود حلت عقودي واوهنت جلدي
عابوه جهلاً بها فقلت لهم أما سمعتم بالثغ في العقد
وله من قصيدة:

فلا تنفذن العمر في طلب الصبا ولا تشقين يوماً بسعدى ولا نعم
ولا تندبن اطلال مية بالوى ولا تسفحن ماء الشئون على رسم
فإن قصارى المرء ادراك حاجة وتبقى مذمات الأحاديث والائتم

إلى آخر ما قال، وتوفى بمصر في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة.

ومن علماء صقلية أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلي المنعوت بحجة
الدين، قال ابن خلكان: صاحب التصانيف الممتعة ككتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع،
صنفه لبعض القواد بصقلية سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وخير البشر بخير البشر وكتاب
الينوع في تفسير القرآن الكريم وكتاب نجباء الأنباء وشرح المقامات للحريري وهما شرحان
كبير وصغير.

ويروى له شعر فمن ذلك قوله:

حملتك في قلبى فهل أنت عالم بأنك محمول وأنت مقيم
الا إن شخصاً في نوادى محله وأشتاقه شخص على كريم
إلى أن قال - وكانت نشأته بمكة وتقل في البلاد ومولده بصقلية وسكن آخر الوقت بمدينة
حماة وتوفى بها سنة خمس وستين وخمسمائة.

ومن علمائها أبو عبد الله المازري وسيأتي القول عليه.

ومنهم أبو بكر محمد بن سابق الصقلي، قال ابن بشكوال في الصلة: كان من أهل الكلام ماثلاً
إليه قدم الأندلس وأخذ عنه أهل غرناطة وتوفى بمصر سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة.

والقاضي الرشيد أحمد بن قاسم الصقلي قال العماد: طرأ على مصر وكان قاضي قضاتها في أيام
الأفضل: قال: دخل يوماً على الأفضل وبين يديه دواة من عاج محلاة بمرجان فقال:

الين لداود الحديد بقدره يقدره في السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة على أنه صعب المرام شديد
وأبو الفضل العباس بن عمرو الصقلي قال في جذوة المقتبس كان بالأندلس وروى الحديث
هناك.

والفقيه أبو موسى عيسى بن عبد المنعم الصقلي قال العماد: كان كبير الشأن، ذا الحجة والبرهان، إلى أن قال: ومن بديع قوله في الغزل، وهو أحلى من نبح الأمل:

يا بنى الأصفر أنتم بدمى منكم القاتل لى والمستبج
أملج هجر من يهواكم وحلال ذاك فى دين المسيح
يا عليل الطرف من غير ضنى وإذا لاحظ قلبًا فصحيح
كل شيء بعدما أبصرتكم من صنوف الحسن فى عيني قبيح

وولده الفقيه أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم الصقلي قال العماد: كاتب شاعر، بارع ماهر، مهندس منجم، لغارب الفصاحة منسم، وفى ملتقى أولى العلم كفى معلم، إلى آخر ما هنالك، وقال صاحب طبقات الحكماء، هو من أهل العلم بعلم الهندسة والنجوم ماهر فيهما قيم بهما مذكور بين الحكماء هناك ومن شعره:

كنمت الذى بى فانتفعت بكتمانى
وأهلنت حالى فاتهمت باعلاتى
وما خلت أن الأمر يقضى إلى الذى
رأيت ولكن كل شيء يرى فنانى

ومنه:

أنا والله عاشق لك حتى ليس لى عنك يا منى النفس صبر
وحياتى إن تم لى منك وصل ومماتى إن دام لى منك هجر

وأبو عبد الله هذا هو غير أبى عبد الله الصقلي الفيلسوف المذكور فى الرحلة. ومنهم أبو الحسن على بن حمزة الصقلي قال فى جذوة المقتبس: دخل الأندلس قبل الأربعين وأربعمائة وكان يتكلم فى فنون ويشارك فى علوم إلى آخر ما قال. والفقيه أبو محمد بن صمته الصقلي ذكره العماد فى الخريدة.

ومن أطباء صقلية أبو سعيد بن إبراهيم الصقلي صاحب كتاب المنجم فى التداوى من صنوف الأمراض والشكاوى.

وأحمد بن عبد السلام الشريف الصقلي صاحب كتاب الأطباء فى الأمراض من الفرق إلى القدم ذكرهما صاحب كشف الظنون.

ومن فلاستها أبو عبد الله الصقلي الأتى ذكره فى الرحلة وأبو عبد الله المتقدم ذكره وأبو حفص عمر بن الحسن بن القونى الكاتب ذكره العماد وقال: إنه شاعر كاتب منجم مهندس.

ومن ادباؤها الشاعر الكبير ابن حمد يس قال ابن بسام: هو شاعر ماهر يقرطس امراض المعانى البديعة، ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة، ويتصرف فى التشبيه المصيب، ويفوص فى بحر الكلم على در المعنى الغريب، فمن معانيه البديعة قوله فى صفة نهر:

ومطررد الاجزاء يصقل منته صبا أهلنت للمعين ما فى ضميره

عليها شكا أوجاعه بخيريه
فأقبل يلقي نفسه في غديره
وقد كللت حافاته بيدوره
نقبل شكراً منه عيني مديره

كن لي منها على الدهر اقتراح
لم يكن في قدرة الماء القراح

فقد نعي الليل بشير الصباح
سوابق اللهو ذوات المراح
ريق النوادي من ثغور الاقحاح

وكان قد دخل الأندلس سنة إحدى وسبعين وأربعمئة ومدح المعتمد بن عباد فأحسن إليه وأجزل عطاياه، ولما قبض المعتمد وحبس بأغمات سمع ابن حمد يس أبياتا عملها المعتمد في الاعتقال فقال:

أتأس من يوم يناقض أمسه

وشهب الدراري في البروج تدور

ولما رحلتم بالندی فی أكفكم

وقلقل رضوى منكم وثبير

رفعت لسانی بالقیامة قد دنت

فهذى الجبال الراسيات تسير

وله من أبيات المعاني الغربية:

ويسم نصل السهم وهو قتول

زادت على كحل العيون تكحلا

وله ينشوق إلى صقلية مسقط رأسه:

يجدد للنفس تذكاراتها

ذكرت صقلية والهوى

فإني أحدث أخبأرها

فإن كنت أخرجت من جنة

حسبت دموعى أنهارها

ولولا ملوحة ماء البكاء

ثم يقول بعد ذلك من أبيات:

ولو أن أرضى حرة لاتبها

بمزم بعد السير ضربة لازب

ولكن أرضى كيف لى بفكاكها

من الأسر فى أيدى الملوح الكواذب^(١)

يميتنى ذكرها ويحييها
كأننى للأسى أجاريها
لها أقيها به وأحميها
من كنت للمبتاع أغليها
وبت فى ساحليك أبكيها
وصبغة الكحل فى مآقيها
عن ضمة فاض روحها فيها
أحكام ندين حكما فيها
كيف من العنصرين أفديها

ويقول من أبيات يصف جارية له غرقت:
واوجشتنا من فراق مؤنة
اذكرها والدموع تسبقنى
جوهره كان خاطرى صدفا
يا بحر ارخصت غير مكترث
أبتها فى حشاك مفرقة
ونفحة الطيب فى ذوائبها
عانقها الموت ثم فارقتها
ويلى من الماء والتراب ومن
أماتها ذا وذاك غيرها
وله يصف عودا:

نيطت بظهر تخاله حذبه
اعتاق احزاننا إذا ضربه
جاء بسحر فناطق الخشب

فى حجره اجوف له عنق
يمد كفا إليه ضاربة
قلت الا فانظروا إلى عجب
ولنه:

كما يخفين فى ترك الحضيض
حوى بين القشاعم والبموض

واشراك الردى فى الغيب تخفى
عجبت لجمعه فيهن صيدا
وله يصف خوف القمر:

والبيهدر قد ذهب الخوف بنوره

فى ليلة خسرت أواخر مدها

فكأنه مسرأة قمين احميت

فمشى احمرار النار فى مسودها

ومن أبيات له يصف البق والبراغيث والبموض:

والليل فيه زيادة لا تنقص
وسرت على عجل فما تتربص
مسترخصات منه ما لا يرخص
والبق تشرب والبراغيث ترقص

نومى على ظهر الفراش منغص
من عاديات كالذئاب تذاءبت
جعلت دمي خمرا تداوم شربها
فترى البموض مغنيا بربابه

(١) فارق ابن حمد يس صقلية بعد أن تملك معظمها ووجر النور مندى وذلك حوال سنة ٤٧١هـ وكان ابن حمد يس إذ
ذاك حلثا فى منتصف العقد الثالث.

= وإليك أبياتا له من السهل الممتنع يصح أن يتغنى بها:

هات كأس الراح أو خذها إليك	ينزل اللهو بها بين يديك
ريقة العيش بها فاخلع على	شفتيها كل حين شفتيك
وأطع فيها نديميك بما	حكما واعص غلبها عاذليك
وإذا سقيت منها شفقا	طلعت حمرة في وجتتيك
وتناول نشوة من روضة	طلعت كالشمس بالنجم عليك
تتغنى بنسب قلته	فهواها راجع منك إليك
فاوضت في الوصل عيني عينها	فازدهت عجباً وقالت ما لديك
أعليل أنت ماذا تشتهي	قلت قطفي يبسدى رمانتيك
فانثت كبراً وقالت ويلتا	أوهذا كله يطلب ويك
أنا شمس ويعبيد فلكي	وضيائي نافر من راحتك
لو بدا أمرك لى من قبل ذا	ما رأنا ناظرتى ناظرتيك

وشعره كله جيد مختار ينم عن فحولته وصدق نزعه الشعرية وله ديوان شعر يوجد منه نسخة في دار الكتب الملكية بمصر توفي سنة سبع وعشرين وخمسائة بجزيرة ميورقة وقيل ببجاية - ومن ادباؤها أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي، قال العماد: ولد بصقلية سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة وخرج عنها لما تغلب الروم عليها سنة أربع وستين وأربعمائة قاصداً إلى المعتمد بن عباد، وله من أبيات:

إلام اتباعى للأمانى الكواذب

وهذا طريق المجد بادي المذاهب

أهم ولى عزمان عزم مشرق

وأخر يثنى همتى للمفارب

ولا بد أن أسأل العيس حاجة

تشق على أخفافها والغوارب

على لأمالي اضطراب مؤنل

ولكن على الأتيدار نجح المطالب

فينا نفس لا تصحبي الهون إته

وإن خدعت أسبابه شر صاحب

ويا وطني إن بنت جنى فسانني

ساوطن أكوار العتاق النجائب

إذا كان أصلى من تراب فكلها

بلادى وكل العالمين أتارى

وهذا من قول ابن المعتز:

إذا كنت فى الناس ذا ثروة
فأنت المسود فى العالم
وحسبك من نسب صورة
تخبر أنك من آدم
وما ضاق عنى فى البسيطة جانب
وإن جل إلا اعتضت منه بجانب
إذا كنت ذا هم فكن ذا عزيمة
فما غائب نال التجاح بغائب

- ومنهم عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبي السعدي الصقلي المعروف بالقاضي الجليس - قال ابن شاعر الكتيبي صاحب فوات الوفيات تولى ديوان الانشاء للفائز (العلوي صاحب مصر) مع الموفق بن الخلال - ومن شعره:

المت بنا والليل يزهى بلمسة
دجوجية لم يكتهل بعد فؤادها
فأشرق ضوء الصبح وهو جبينها
وفاحت أزهير الرى وهى رباها
إذا ما اجتنت من وجهها العين روضة
أسالت خلال الروض بالدمع أمواها
وإنى لأستسقى السحاب لربعها
وإن لم تكن إلا ضلوعى مأواها
إذا اشعلت نار الأسى بين أضلعي
نضحت على حر الحشا برد ذكراها
وما بى أن يصلى الفؤاد بحرها
ويضرم لولا أن فى القلب سكنها

ومنه:

ومن عجب أن الصوارم والقنا
واعجب من ذا أنها فى اكفهم
وقال: وكان ابن الحباب كبير الأنف وكان الخطيب أبو القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن
الصيد مولعا بأنفه وهجائه وذكر أنفه فى أكثر من ألف مقطوع فانتصر له ابن قادوس الشاعر
فقال:

يا من يعيب أنوفنا الشم
خم التى ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا
وقرونك اكساب =

مات سنة إحدى وستين وخمسمائة وقد أناف على السبعين - ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن بشرون الكاتب الصقلي صاحب كتاب المختار في النظم والنثر، لأفاضل المصر ذكره العماد وأورد له شعراً جزلاً، ومنهم تاج الدولة جعفر ابن ثقة الدولة يوسف بن عبد الله ابن محمد بن الحسين القضاعي الكلبي صاحب صقلية، قال ابن خلكان كان أديباً شاعراً، وله الأبيات السائرة في غلامين علي أحدهما ثوب ديباج أحمر وعلي الآخر ثوب ديباج أسود وهي:

أرى بديري قد طلعت علي غصنين في نسق
وفي ثويين قد صبغت صبغ الخند والحدق
فهذي الشمس في شفق وهذا البدر في غسق
وكان عمله لهذه الأبيات ستة سبع وعشرين وخمسمائة ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي الصباغ الكاتب قال ابن القطاع: كان في عهد ابن رشيق وبينهما مراسلات وله:

قومي اللذين إذا السنايك انشأت
دون السحاب سحائباً من عشير

برقت صوارمهم وأمطرت الطلا
علقاً كثر ثار الحيا المتفجر

الواترين فلا يقاد وتيرهم
والفاتكين بحمير وقيصر

والمانعين حماهم أن يرتعي
والحاسمين لكل داء يعتري

- وأبو الفضل مشرف بن راشد، قال ابن القطاع القائل:

سرت ورداء الليل اسحم حالك
ولا سائر إلا النجوم الشوابك

عشية اعشع الدمع انسان مقاني
ونمت بأشرار الدموع السواقك

وطاف الكرى بالطرف وهو محجب
كما طاف بالبيت المحجب ناسك

سرت موهنا ثم استقلت فودعت
يجاذبها حقف من الرمل عاتك

به غصن بان أسمر البدر طالعا
عليه قناع من دجى الليل حالك

واحور مكحول المدامع عاتني
عن الصبر فاستولت عليه المهالك

عليها مفصلاً عند ذكر وصولنا إليها إن شاء الله، وبين مدينة بلرم هذه وبين مدينة مسيني توجد المدن الآتية واقعة على ساحل البحر غربي هذه الجزيرة وهي مدينة ثرمة ولييرى وبقطش وجفلوذ والقارونية وقلعة القوارب وميلاص وجطين^(١) وشنت ماركو، وبين مسيني وبلرم على سيف البحر شرقي الجزيرة وجنوبيها تقع البلدان الآتية، على الترتيب الآتي هكذا: مدينة طبرمين بشرقي مدينة مسيني على مرحلة منها - وهي مدينة أزلية قديمة من أشرف البلاد وأعيانها^(٢) وقلعة حصينة من اصول القلاع وأركانها، وهي على جبل مظل على البحر يسمى جبل الطور^(٣) وفيها كما حدثني أبو عبد الله الصقلي الفيلسوف^(٤) ملعب من ملاعب الروم القديمة كأنه شعب بوآن الذي يقول فيه أبو الطيب المتنبى:

مغانى الشَّعب طيباً فى المغانى
بمنزلة الربيع من الزمان

= والأمير أبو محمد عمار بن المنصور الكلبى قال ابن القطاع: كان من أفاضل العلماء، وسادات الأمراء، وذو يد فى الفقه والحديث وله:

تقول لقد رأيت رجال نجد	وما ابصرت مثلك من يمان
ألفت وقائع الغمرات حتى	كأنك من رداها فى امان
إلى كم ذا الهجوم على المنايا	وكم هذا التمرض للطعمان
فقلت لها سمعت بكل شيء	ولم أسمع بكلمة جبان

وقال فى ابن عمه شكايه:

ظنتك سيفاً انتضيك على العدى
وما خلت أنى انتضيك على نفسى
وجئتك ابغى رفعة وكرامة
فأمسيت مقهوراً بقربك فى حبس

(١) ينسب إليها على بن عبد الله الجطينى كما قال ياقوت.

(٢) نزهة المشاق.

(٣) نزهة المشاق.

(٤) سيفه الرحالة قريباً.

ملاعب جنة لو سار فيها
 سليمان لسار بترجمان
 طبّت فرساننا والخيل حتى
 خشيتُ وإن كرم من الحرّان^(١)
 غدونا تنفض الاغصان فيه
 على أعرافها مثل الجمان^(٢)
 فسرت وقد حجبت الشمس عنى
 وجئت من الضياء بما كفاني^(٣)
 والقى الشرق منها فى ثيابى
 دنائيراً تفر من البنان^(٤)
 لها ثمر تشير إليك منها
 بأشربة وقفن بلا أوانى^(٥)
 وامواه يصل بها حصاها
 حليل الحلى فى أيدي الغوانى

وقد فتح المسلمون هذه المدينة أيام إبراهيم بن أحمد ابن الأغلب - وكان

- (١) يقول: دعت هذه المغانى لطبيها خيلنا وفرساننا إلى المقام فاستهوت قلوبنا وقلوب خيلنا حتى خشيت على خيلنا أن تقف فلا تبرح هذا المكان وإن كانت كريمة لا يعرفها الحران.
 (٢) يقول إنه كثير الامواه والشجر فالندى يسقط على اشجاره ليلافى تنفض على اعراف الخيل مثل الجمان أى القضة.
 (٣) يقول سرت وهذه الأشجار نحجب عنى حر الشمس وتلقى على من الضياء ما احتاجه.
 (٤) الشرق الشمس يقول هذا الشجر كثير الورق ملتف فضوء الشمس يدخل من خلله فيكون على الثياب كأنه الدنانير غير أنه يفر من الأصابع.
 (٥) يقول هذه الاغصان ثمارها رقيقة فكانها لذلك اشربة قائمة بنفوسها ولا أوانى لها وهذا ينظر إلى قول البحترى:

يخفى الزجاجه لونها فكانها فى الكف قائمة بنفوسها

عادلاً حازماً في أموره، آمن البلاد، وعصف بأهل البغي والفساد^(١) وبنى الحصون والمحارس على سواحل البحر حتى كان توقد النار من سبته فينتهي الخبر إلى الاسكندرية في الليلة الواحدة^(٢) وذلك^(٣) لسبع بقين من شعبان سنة تسع وثمانين ومائتين الموافق أول أغشت الرومى سنة اثنتين وتسعمائة، وكان لفتح هذا البلد اسوأ وقع في نفس الانبرور صاحب القسطنطينية حتى بقى سبعة أيام لا يلبس التاج وقال لا يلبس التاج محزون^(٤) ثم مدينة قطنية على ستة أميال من مدينة لياج الواقعة بينها وبين طبرمين، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر فى سفح جبل النار وتسمى الآن مدينة الفيل لأن فيها طلسمًا من حجر على صورة فيل كان منصوبًا فيهما غبر من الأيام على بناء شاهق ثم نقل ونصب داخل المدينة^(٥) وبهذه المدينة الأسواق العامرة، والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والفنادق والحمامات، ثم مدينة سرقوسة^(٦) شرقى مدينة قطنية على مرحلتين كبيرتين منها، وهى من

(١) أتى عليهم واهلكهم.

(٢) ابن الأثير.

(٣) أى فتح المسلمين مدينة طبرمين.

(٤) ابن الأثير.

(٥) نزهة المشتاق.

(٦) هى مسقط رأس الشاعر ابن حمد يس وولده محمد بن حمد يس ذكره العماد الكاتب وقال إنه أشعر من والده وأورد له شعراً جزلاً، ولأن وقتها متأخر عن وقت الرحلة لم تتعرض لهما فى الرحلة، وكذلك ينسب إليها أبو عمرو عثمان بن على بن عمر السرقوسى النحوى قال السلفى كان من العلم بمكان نحواً ولغة وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض وجاء القاهرة وصارت له حلقة للاقراء فى جامع عمرو، وينسب إليها الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن ابن أبى بكر السرقوسى ذكره العماد فى الخريدة وأورد له شعراً:

وقد جاءت سرقوسة فى شعر لابن قلاقس السكندرى يصف به مركبا سار به إلى صقلية قال:

مجنونة سبحت على مجنون
بالنون أنا من طعمام النون
ذا وجنة بالموج ذات غضون
قلبت ظهور مشاهد لبطون
فى ملجأ للخائنين أمين

ثم استقلت بى على علاتها
هوجاء تقسم والرياح تقودها
حتى إذا ما البحر ابدته الصبا
القت به النكباء راحة عاثت
وتكفلت سرقوسة بأمانا

مشهورات المدن وأعيان البلاد، تضرب إليها أكباد الإبل من كل حاضر وباد، وهي على ساحل البحر والبحر محدد بها من جميع جهاتها، وبها ما بأكبر المدن من الأسواق والخانات والمساجد والحمامات والمباني الرائقة والأفنية الواسعة المونقة، ولها إقليم كبير طوال كله مزارع وجنات وأثمار، وقدّمًا كان بها سرير ملك الروم، فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقلت دار الملك إلى مدينة قصر يانته إلى أن امتلك المسلمون سائر الجزيرة، وقد فتح المسلمون سر قوسه هذه رابع عشر رمضان سنة أربع وستين ومائتين الموافق عشرين ماية الرومي سنة سبع وسبعين وثمانمائة، ثم مدائن نوطس وشكلة ورجوص وبشيرة^(١) وكركبت^(٢) وشاقه^(٣) ومازر^(٤) ومرسى على وطرابنش^(٥) ومدائن أخرى كثيرة^(٦) وكلها على

(١) وهي بلد عبد الرحمن بن محمد بن عمر البشيري الصقلي ذكره العماد الكاتب في خريدة العصر وأورد له قصيدة مدح بها رجار (روجر النور مندى).

(٢) ينسب إليها محمد بن الحسن بن علي أبو بكر الكركتسي الفقيه المالكي قال المقرئ في كتاب المقفى كان من الاخيار وافاضل المسلمين قدم الاسكندرية وتوفى سنة ٥٣٧.

(٣) قال ياقوت ينسب إليها أبو عمر عثمان بن حجاج الشاقي الصقلي من سكان الاسكندرية لقبه السلفى وعلق عنه وتوفى في محرم سنة ٥٤٤ وتفقه على مذهب مالك على الكبير وكتب كتبًا كثيرة في الفقه.

(٤) وإليها ينسب أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد التيمي المازري الفقيه المالكي المحدث قال ابن خلكان هو أحد الاعلام المشار إليهم في حفظ الحديث والكلام عليه وشرح صحيح مسلم شرحًا جيدًا سماه كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم وعليه بنى القاضي عياض كتاب الاكمال، وله في الادب كتب متعددة وله كتاب ايضاح المحصول في برهان الاصول وكان فاضلا متفتنا وتوفى في الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخمسمائة وعمره ثلاث وثمانون سنة.

(٥) ينسب إليها عبد الرحمن بن أبي العباس الكاتب الطرابنشي أورد له العماد الكاتب في الخريدة ابياتًا جزلة في وصف منزله وكذلك ينسب إليها أبو الحسن بن عبد الله الطرابنشي ذكره العماد أيضا وأورد له شعرا، وسليمان بن محمد الطرابنشي ذكره ابن القطاع في الدررة الخطيرة.

(٦) ومن مدائن صقلية مدينتا سمطار وبنسوبة ذكرهما ياقوت قال ومن الأولى أبو بكر عتيق السمطاري الرجل الصالح العابد له كتاب كبير في الرقائق وكتاب دليل القاصدين يزيد على عشرة مجلدات قال: قال ابن القطاع، العابد أبو بكر عتيق بن علي بن داود المعروف بالسمطاري أحد عباد الجزيرة المجتهدين وزاهدا العالمين، ومن رفض الأولى ولم يتعلق =

ساحل البحر كما أسلفنا عدا مدينة رغوص فإن بينها وبين البحر نحو من اثني عشر ميلا، أما مدينة قَصْرِيَّانَه فهي في وسط الجزيرة على سن جبل وهي مدينة أزلية قديمة، وقد كان فيها سرير ملك الروم نقل إليها كما أسلفنا بعد أن ملك المسلمون مدينة سرقوسة لحصانتها، وقد فتح المسلمون هذه المدينة يوم الخميس منتصف شوال سنة أربع وأربعين ومائتين الموافق سلخ يناير الرومي سنة تسع وخمسين وثمانمائة، ولما فتحها العباس الأغلبي بنى فيها في الحال مسجدا ونصب فيه منبراً وخطب فيه يوم الجمعة وذل الروم بصقلية يومئذ ذلا عظيما.

«وبعد» فهذا الذي ذكرنا من بلدان هذه الجزيرة إنما هو غيض من فيض ونحن إذا حاولنا ذكر سائر المدن والقرى والقلاع المعروفة في هذه الجزيرة، لاحتجنا إلى أسفار كثيرة، وفي هذا القدر غناء.

وقد رأينا من تمام الفائدة أن نصور للناظر في هذه الرسالة جزيرة صقلية وبعض بلدانها المشهورة وبلاد قلورية ومدينة ريو وجزائر أقريطش وسردينية

= منها بسبب، وطلب الأخرى وبالغ في الطلب، وسافر إلى الحجاز فحج وساح في البلدان من أرض اليمن والشام إلى أرض فارس وخراسان ولقى من بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد فكتب عنهم جميع ما سمع وصف كل ما جمع وله في دخول البلدان ولقياه العلماء كتاب بناه على حروف المعجم في غاية الفصاحة وله في الرقائق وأخبار الصالحين كتاب كبير لم يسبق إلى مثله في نهاية الملاحاة وفي الفقه والحديث تأليف حسان في غاية الترتيب والبيان وله شعر في الزهد ومكائد الزمان - ومنه قوله:

فنتن أقبلت وقوم غفول	وزمان على الأيام يصول
ركدت فيه لا تريد زوالا	عم فيها الفساد والتضليل
أيها الخائن الذي شأنه الأثم	وكسب الحرام ماذا تقول
بعث دار الخلود بالثمن البخس	بدنيا عما قريب تزول

قال وقد توفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٤٦٤ - قال ياقوت وإلى بلنوية ينسب أبو الحسن علي بن عبد الرحمن واخوه عبد العزيز الصقلي البلنوي القائل:

بحق المحبة لا تجفني	فإني إليك مشوق مشوق
ولا تنس حق الوداد القديم	فذلك عهد وثيق وثيق
وكن ما حبيت شفيقا على	فإني عليك شفيق شفيق
ولا تهمني فيما أقول	فوالله إني صدوق صدوق

وقرشقة وميورقة ومنورقة ويابسة ومديتى الاسكندرية والمرية وبالجملة كل ما جاء له ذكر فى هذه الرسالة.

وقد آن لنا أن نرجع إلى ما نحن بصدده

* * *

مدينة مسينى :

أما مدينة مسينى فهى فى ركن من الجزيرة بشرقيها^(١) مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها والبحر يعترض أمامها فى الجهة الجنوبية منها، ومرساها أعجب مراسى البلاد البحرية كما اسلفنا لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسكه ولا يحتاج إلى زواريق فى وسقها ولا فى تفرغها إلا ما كان مرسياً على البعد منها يسيراً فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد فى مراتبها واصطبلاتها وذلك لافراط العمق فيها^(٢).

وهذه مسينى هى رأس جزيرة صقلية وهى كثيرة العماثر والضياع، وأرضها طيبة المنابت وبها جنات وبساتين ذات أثمار كثيرة ولها أنهار غزيرة عليها ارحاء جمّة^(٣).

* * *

ولما نزلت هذه المدينة سلمت امتعتى إلى أحد الحمالين وقصدت معه إلى أحد الفنادق فذهب بى إلى فندق قائم على جبل مظل على المدينة، وكان لأحد مغاربة أفريقية، فاحتفى بى صاحبه وبالغ فى إكرامى واحتفل فى راحتى حتى أنسانى برقة حاشيته وطيب أنسه مجاشم السفر وذلل الاغتراب، وقد صادفت فى هذا الفندق أبا عبد الله الصقلى الفيلسوف وكان قد نهى حفظه الله من بلرم إلى مسينى لما علم بقدمى فكمّل أنسى به وعرانى من الغبطة والسرور ما لا يقوم

(١) ابن جبير.

(٢) الأدرسى.

(٣) ابن جبير.

بالعبارة عنه بيان، ولا يروم اطلاع فجه لسان، ولا سيما حين أخبرني أبو عبد الله أنه يتتوى الذهاب إلى الاندلس وهي متواى ومقصدى.

* * *

ولما رأيت أبا عبد الله - وكنت لم اره قبل ذلك بيد انى سمعت بفضله الجب وعلمه الغزير حتى شغفت برؤيته - والأذن تعشق قبل العين احياناً - رأيت منه رجلا تشد إليه الرحال، وتضرب إلى علمه اكباد الآبال، ويصاب عنده مقطع الحق واليقين، ويلقى لديه مفصل السداد فى علوم الحكمة والدين.

من مبلغ الاعراب أنى بعدها

شاهدت رسطاليس والاسكندرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما

رد الاله نفوسهم والاعصرا

ولا جرم فإن أبا عبد الله فيلسوف عصره، وواحد قطره، وهو فى علم الطب والحكمة منقطع النظير لا تكاد تفتح العين على مثله، وقد حذق اللسان الاغريقى واحكم معرفته حتى كأنه من أهله، وهو فى الادب منظومه ومنشوره نادرة الفلك ويكر عطارد.

* * *

ولقد أقيمت فى مسينى ثلاثة أيام بلياليها أنسانى فيها أبو عبد الله الصقلى الفيلسوف بأدبه وظرفه ورقة حاشيته ما يعرو الغريب فى البلد النازح من الوحشة والانقباض، ثم علمنا فى اليوم الرابع لمقامنا أن قد أرسى على ميناء هذا البلد سفينة كبيرة قادمة من القسطنطينية العظمى قاصدة إلى بر الاندلس، فاعتزمت أنا وأبو عبد الله أن نساغر فيها، وكان هذا العزم من تمام فضل الله علينا وحسن توفيقه إذ أصبنا فى هذا المركب عند نزولنا فيه منية النفس ومطمح الروح - فضل المدينة - التى ضرب الدهر بينى وبينها أياما كانت على قلتها كأنها شهور بل أعوام، وكان

معها صاحبها علم المدينة وقلم الرومية، وهن كما علمت ممن حدقن الغناء ونبغن فيه بعد أن تعلمنه في المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهذه قلم كما أخبرتنى أندلسية الاصل رومية من سبي البشكنس وحملت صغيرة إلى المشرق فوَقعت بالمدينة المنورة ولقنت هنالك الغناء، ثم اشترت مع علم لأمير المؤمنين بالاندلس عبد الرحمن الناصر.

* * *

وقد أخبرتنى فضل أن المركب الذي كانت فيه لما أرسى على مسيني بعد ارسائه على ريو لشراء ما يحتاج إليه من الميرة والطعام ألقى في روعها هي ومن معها أن ينزلن في مسيني ويتركن هذا المركب - وهو لأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر - خشية أن يأسره ومن فيه عمال المعز لدين الله الفاطمي لأن بلاد صقلية إحدى ولايات المعز، وقد علمت أن هذا المركب كان قد تحرش وهو ذاهب إلى المشرق بمركب للمعز، فأحفظ المعز هذا الأمر وأخذه منه المقيم المقعد^(١) وحمله على أن يطوى كشحه^(٢) على الشار من الناصر، ثم أقامت فضل هذه المدينة في فندق من فنادقها، في رِض من ارباضها، فقلت يا عجباً كل العجب:

أليس غريباً أن نكون ببلدة كلانا بها ناوٍ ولا نتكلم

* * *

أما نبأ هذه السفينة الرومية فذلك أن قسطنطين بن ليون انبرور الروم «امبراطور دولة الرومان الشرقية» كان قد أهدي منذ ثمان حجج إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر هدايا ذات قدر عظيم، يتقرب بها إليه، ويصبص بذنبه لديه^(٣) واستدفاعاً لمكره وكيده، واستجلاباً لعطفه ووده، واستظهاراً به على أخذ بلاده

(١) الغضب.

(٢) يعزم.

(٣) يتملقه - والبصصة في الاصل تحريك الكلب ذنبه طمعاً أو خوفاً.

«بلاد قسطنطين» المعز لدين الله^(١) وكان من هذه الهدايا كتاب ديسقوريدس الطبيب، مصور الحشائش العجيب، وكتاب هروشيش «هيرودوتس» المؤرخ الرومي العظيم، وكان الكتاب الأول مكتوبًا بالإغريقي، وهو اليوناني القديم، والكتاب الثاني كان مكتوبًا باللسان اللطيني، وكتب قسطنطين فيما كتب اذ ذاك إلى الناصر: إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الأدوية، فإن كان في بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب، وأما كتاب هروشيش فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرؤه باللسان اللطيني وإن كشفتهم عنه نقلوه إليك من اللطيني إلى اللسان العربي» ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الاندلس من يعرف الاغريقي، فبقى كتاب ديسقوريدس في خزانة الناصر كما هو لم يترجم إلى العربية، فلما ولي أمر الروم ارمانوس بن قسطنطين تقدم إليه الناصر^(٢) بأن يبعث رجلا يعرف الاغريقي واللطيني ليعلم له عبيدًا يكونون مترجمين^(٣) فأرسل ارمانوس في هذا المركب راهبًا عظيمًا يسمى نقولا، وقد أزلت لك أن أبا عبد الله الصقلي يحسن الاغريقي إحسانه للطب والفلسفة والنجوم، وقد كان أخبرني أن الناصر أرسل إليه يستحبه على الوفود إليه ليكون في خدمته^(٤) فكان ذلك سببًا في انعقاد الصحبة بيننا وبين هذا الراهب، وقد أصبنا منه رجلا حديثًا طريف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب.

* * *

(١) كان الفاطميون زمن هذه الرحلة في حروب لا تكاد تنقطع بينهم وبين الرومان، وقد أخذوا من الرومان صقلية والجزء الجنوبي من ايطالية - راجع الكلام على صقلية.

(٢) أمره.

(٣) طبقات الاطباء.

(٤) ذكر ابن جلجل أن أبا عبد الله الصقلي كان في الاندلس أيام الناصر مع الراهب نقولا وقال عنه إنه طبيب فاضل وإنه يعرف الاغريقي.

ولقد ألفينا فى هذا المركب طبييين اندلسيين كانا قد رحلنا إلى المشرق منذ سنين واقاما هنالك نيفا وعشرين سنة ودخلا دار السلام «بغداد» وقرأ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرّة كتب جالينوس ثم قفلا راجعين إلى الاندلس مسقط رأسهما، ونزلا فى هذا المركب من أحد الثغور، وهما أخوان يسمى أحدهما عمر والثانى أحمد^(١) وهما ابنا يونس بن أحمد الحرانى الطبيب المشهور، وقد أخبرانى أن كتاب ديسقوريدس هذا كان قد ترجمه بدار السلام أيام جعفر المتوكل الخليفة العباسى اصطفن بن بسيل المترجم من الاغريقى إلى العربى، وتصفحه حنين بن إسحاق فصحح الترجمة وأجازها - قالوا: وقد ورد هذا الكتاب إلى بلادنا «الاندلس» وهو على ترجمة اصطفن^(٢) وقد قرأناه وصححنا كثيرا من أسماء العقاقير التى لم يعرف لها اصطفن اسمًا فى العربية، وقد انتفع كثير من أهل المشرق وأهل الاندلس بالمعروف منه، وفى الاندلس اليوم من إخواننا الأطباء نفر توفروا على هذا الكتاب يصححون أسماء عقاقيره ويعينون اشخاصها، ومنهم اخونا البساسى والشجار وأبو عثمان اليابسة ومحمد بن سعيد الطبيب^(٣) وكأنا بسيدنا الناصر أدام الله تأييده وقد أبى إلا أن يقر الامر فى نصابه، ويغمد السيف فى قرابه، ويتم امر هذا الكتاب على ما به، فطلب إلى ارمانىوس ما طلب، وكل ذلك من سيدنا فضل عناية منه بكل ما يجدى على بلاده ويسمو بها صعدًا إلى ابعد مراتب العظمة الذهنية كما أبعدت به وباسلافه فى سائر ضروب الحضارة، وذلك لما فطره الله عليه من العزيمة النافذة، والهمة الطموح البعيدة المرمى، فلا يتعاضمه أمر، ولا تقف همته دون غاية، وحتى لا يحبك فى صدر إنسان أن خلفاء بنى

(١) جاء فى طبقات الأطباء أن هذين أحمد وعمر سافرا من الاندلس إلى المشرق سنة ٣٣٠ هجرية ثم رجعا إليها سنة ٣٥١ واستخلصهما الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر لنفسه.

(٢) طبقات الأطباء فى الكلام على ابن جلجل.

(٣) طبقات الأطباء.

العباس في المشرق، أو منافسيه الفاطميين في افريقية قد سبقوه إلى شيء لم يسبقهم هو إليه، وأنت تعلم أن هذه الدول الإسلامية الثلاث^(١) هي أعظم دول الأرض اليوم شأنًا، واضخمها سلطانًا، والقباضة على زمام الأمور، والمالكة اخصب البلاد من هذا المعمور، والمستبحر عمران بلادها إلى أكثر من المتوقع المنظور، والتي تعد سائر دول الأرض من هذه الأمم الحمراء كأنها تبع لها وعبال عليها، فتراها لذلك نتهالك في كل آونة على الازدلاف إليها، وتستنزل رضاها بالهدايا والتحف، وغريب النفائس والطرف، وتستصرخها بعض على بعض فتكون الحثوف أسبق إلى المغضوب عليهم من السيوف.

إِنَّا إِذَا مَا أَنَا صَارِحَ فَرِزِعَ

كان الصراخ له قرع الظنابيب^(٢)

ومن ثم ترى هذه الدول العظمى تتسامى في كل ما يكسبها حسن الاثر، وجميل الذكر، ويملاً مسامع الدهر حمداً وثناء، وينبض له قلب الدنيا فخراً وعلاء، فتراها لذلك آخذة بيد العلم والعلماء، مألثة باعطيائها أيدي الشعر والشعراء، حتى العلوم الفلسفية بجميع ضروبها من الهية وطبيعية ورياضية وطبية وفلكية تعضدها وتغرى القائمين عليها بالاستزادة منها والتقصى في البحث عن غوامضها، وتظهر الرغبة في الحصول على ماأخذها من ملوك الروم الذين حشدت في خزائن كتبهم تواليف فلاسفة اليونان الأقدمين.

* * *

ولقد أقلعت بنا السفينة باسم الله مجراها من ميناء مسيني، وبكرت مع البازي عليه سواد، في فجر يوم الجمعة سلخ ربيع الأول، وذلك لثلاث عشرة ليلة خلت

(١) الدولة العباسية والدولة الفاطمية والدولة الأموية بالاندلس.

(٢) البيت لسلامة بن جندل - يقول: إذا أنا مستغيث كانت اغائته الجد في نصرته يقال قرع لذلك الأمر ظنوبه إذا جد فيه والظنوب هو طرف العظم اليايس من الساق - فالشاعر جعل قرع الصوت على ساق الخف في زجر الفرس قرعا للظنوب.

من شهر جونيرو الرومي سنة ست وخمسين وتسعمائة من مولد السيد المسيح،
 عليه الصلاة والسلام، وكان البحر هادئاً، والنسيم فاتراً عليلاً، وكانت قبة فضل ومن
 معها بمرأى منا ومسمع، وكان معنا اديب من ادباء صقلية لم نكن ندرى أين
 وجهته ولكنه نزل بعد ذلك في جزيرة ميورقة، وكان قد ندّم منه عقيب اقلعنا من
 مسيني امر افضى إلى حديث لا علينا إذا نحن اوردناه في هذه الرسالة تطرية للقول،
 وذلك أنا بعد أن صلينا الصبح حاضرة وصلّى معنا هذا الاديب الصقلي رأيناه وقد
 انتحى ناحية وأخذ يصطبح ويلح على ابنة العنب يشربها صرفاً لا يقتلها بالماء،
 فانكرت عليه ذلك انكاراً شديداً وقلت له: ما تصنع بالخمير، وإن أولها لمر وإن
 آخرها لسكر، فقال: لا أقول لك إلا ما قال الاخطل لعبد الملك بن مروان إذ قال له
 عبد الملك مثل قولك هذا فقال له الاخطل: ولكن بين هاتين لمنزلة ما ملك امير
 المؤمنين فيها إلا كعلقة ماء من الفرات بالاصبع ثم انشد الاخطل:

إذا ما نديمي علّنى ثم علّنى

ثلاث زجاجات لهن هدير

خرجت أجر الذيل تيهها كأنى

عليك أمير المؤمنين أمير

(وبعد) فله ذلك الطائر الفردوسى البديع الذى كأنه روح هبط على هذه
 الغبراء من المحل الارفع ومعه تلك الهدية التى لا هدية مثلها، تلك البذور
 الثلاث^(١) التى ما أظنه إلا أنه اختلسها من عنب الجنة ليتحفنا بها فنزدرعها ونفزع

(١) تشير بذلك إلى خرافة جميلة ذكرها المسعودى فى كتابه مروج الذهب وهى أن أحد ملوك
 الهند الاقدمين كان جالساً ذات يوم فى قصره واخوته حوله فأخذت عينه طائراً قد أفرخ فى
 أعلا قصره ورآه يضرب بجناحيه ويصيح فتأمل الملك ذلك فنظر إلى حية تنساب إلى الوكر
 صاعدة لأكل فراخ الطائر فدها الملك بقوس فرمى الحية فصرعها وسلمت فراخ الطائر فجاء
 الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحيه فى متقاربه حبة وفى مخلايه جتان وجاء إلى الملك وألقى ما =

إلى عصيرها في هذه الحياة المحزونة المفعمة آلاما ليسرى عنا ويجلو منا صد
الحس، وينقى الهم عن ساحة النفس.

إن الذي جعل الهموم عقاريا جعل المدام حقيقة درياقتها

* * *

اقتلاهمى بصرف عقار واتركا الدرر فما شاء كانا

إن للمكروه لذعة هم فإذا دام على المرء هانا

* * *

إذا ما أنت دون اللهة من الفتى

دعاهمه من صدره برحيل

فقلت له ولكنها، قبحها الله، تسيء من المرء أخلاقه، وتخمل النابه، وترفعه

- كان في منقاره ومخلاييه والملك يرمقه فوقع الحب بين يدي الملك فتأمله وقال ما ألقى هذا الطائر ما ألقى إلا أنه أراد بلا شك مكافأتنا على فعلنا به فأخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله في اقليمه فقال جليس من جلسائه حكيم وقد نظر إلى حيرة الملك في الحب أيها الملك ينبغي أن يودع النبات ارحام الأرض فإنها تخرج كنه ما فيه تنقف على الغاية منه واداء ما في مخزونه ومكتونه فدعا بالاكورة وامرهم بزرع الحب ومراعاته وما يكون منه فزرع فنبت وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأحطب وهم يرمقونه والملك يراعيه إلى أن انتهى في البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفا أن يكون متلفا فأمر الملك بمصر مائه وأن يودع في اوان وافراد حب منه وتركه على حالته فلما صار في الآنية عصيرا هدر وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة فقال الملك على بشيخ فأثى به فلدد له من ذلك في اناه فراه لونا عجيبا ومنذرا كاملا ولونا ياقوتيا احمر وشعاعا نيرا ثم سقوا الشيخ فما شرب ثلاثا حتى مال وأرخی من مآزره الفضول وحرك رأسه ووقع يرجليه فطرب ورفع عقيرته يتغنى فقال الملك هذا شراب يذهب بالعقل وأخاف أن يكون قاتلا ألا ترى إلى الشيخ كيف عاد في حال الصبي وسلطان الدم وقوة الشباب ثم أمر الملك به فزيد فسكر الشيخ فنام فقال الملك هلك ثم إن الشيخ افاق وطلب الزيادة من الشراب وقال لقد شربته فكشف عن الغموم وازال عن ساحتي الاحزان والهموم وما أراد الطائر إلا مكافأتمكم بهذا الشراب الشريف فقال الملك هذا شراب اشرف أهل الأرض وذلك أنه رأى شيئا قد حسن وقوى حيله وانبسط في نفسه وطرب في حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم وجاد هضمه وجاءه النوم وصفا لونه واعتزته اربحية فأمر الملك أن يمنع العامة من ذلك وقال هذا شراب الملوك وأنا السبب فيه فإن كان فلا يشربه غيري فاستعمله الملك بقية أيامه ثم نما في أيدي الناس واستعملوه.

إلى أسفل، وتهوى بالشرف الرفيع إلى الحضيض الاوهد، والله ذلك القرشى حين يقول:

من تقرع الكأس اللثيمة سنّه
فلا بد يوماً أن يسيء ويجها
ولم أر مطلوباً أحسن غنيمته
واوضع للاشراف منها واخملا
فسرعان ما أنشد:

إذا صدمتني الكأس ابدت محاسني
ولم يخش ندماني أذاتي ولا بخلي
ولست بفحاش عليه وإن أسا
وما شكل من آذى نداماه من شكلي

ثم قال: والخمر لذلك خليقة أن لا يشربها إلا الملوك وأشباه الملوك، أما السوقة والحشو والغوغاء والحمقى ومن إليهم فيجب أن يصلبوا أو يقتلوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم إذا هم شربوها:

والخمر قد يشربها معشر ليسوا إذا عدوا بأكفائها

* * *

وجدت أقل الناس عقلاً إذا انتشى

أقلهم عقلاً إذا كان صاحباً

تزيد حُمياًها السفية سفاهة

وتترك أخلاق الكريم كما هيأ

وبودي لو أن الكأس بالف والحرف في وجه الاسد حتى لا يشرب إلا كريم، ولا ينكح إلا شجاع.

أجل عن اللثام الراح حتى كأن الراح تعصر من عظامي

ورحم الله أبا بكر الهذلي إذ يقول للمنصور وقد سأله عن النبيذ: لقد تبادت فيه السفهاء، حتى كرهته العلماء فقلت له أما تخشى الله يوم الحساب، فقال:

إذا صليت خمسًا كل يوم	فإن الله يغفر لي فسوقى
ولم أشرك برب الناس شيئًا	فقد أمسكت بالدين الوثيق
فهذا الدين ليس به خفاء	دعونى من بنيات الطريق

* * *

ألا لا يفرنك ذو سجدة	يظل بها دائما يخدع
وما لللقى لزمته وجهه	ولكن ليأني مستودع
ثلاثون الفا حواها السجود	فليست إلى ربهما ترجع
ورد اخو الكاس ما عنده	وما كنت فى رده اطمع

* * *

أما النبيذ فلا يدعرك شاربته

واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء

قوم يداوون عما فى نفوسهم

حتى إذا استمكنوا كانوا هم الداء

مشمريين إلى انصاف سوقهم

هم الذئاب وقد يدعون قسراء

فقال أبو عبد الله الفيلسوف: الشراب ضار ونافع، أما إنه نافع فللبدن بإشراقه وتقوية الحرارة الغريزية وانعاشها وانضاج الرطوبات وتنقيح المجارى وإزالة سددها وتقوية الهضم وإنارة الدم وادرار الصفراء وترطيبها، وللنفس بانبساطها وتفتيح آمالها وتشجيعها وقتل الهم والفكر الفاسد ومن ثم كان أنفع الأشياء للماليخوليا ثم هو يؤدم بين القلب والقلب، ويبعث الشوق القديم الذى قد ضل فى الأحشاء، وكل أولئك إذا استعمل على الوجه الذى ينبغى وإلا استحالت هذه

المنافع مضار، فترى عوض السرور همًا وغمًا وضجرًا وسوء خلق، وعوض الصحة مرضًا مزمنًا أو موتًا فجائيًا، وإن إدامة الشراب تبلى الذهن وترخي العصب وتوهن قوى الدماغ وتورث الرعشة والتشنج، وقد أجمع الحكماء قاطبة على أن مدمن الخمر لا ينجب وإن أنجب كان الولد أحمق.

«وبعد» فإن أصدق ما جاء في الخمر قول الله جل شأنه: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ ثم يقول سبحانه يصف خمر الجنة: ﴿لا فيها غَوْلٌ﴾^(١) ولا هم عنها يُنزفون﴾ فكان السر في تحريمها هو أنها تغتال عقولنا وتشربها وتورثها الخبل والصداع كما قال الأول:

وما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول

وما أطف قول بعض الظرفاء وقد ترك النبيذ فقيل له: كيف تتركه وهو رسول السرور إلى القلب؟ فقال: نعم ولكنه بشئ الرسول يُبعث إلى القلب فيذهب إلى الرأس، ويشبه ذلك قول المجنون لملك من الملوك وقد استظرفه واختار أن يكون نديمًا له وعرض عليه الشراب فقال المجنون: أيها الملك أنت تشرب هذا لتصير مثلى وأنا أشربه لأصير مثل من! وقال عبد العزيز بن مروان: لُصِبَ الشاعر يوماً هل لك فيما يُثير المحادثة - يريد المنادمة - قال: أصلح الله الأمير الشَّعر مفلفل واللون مرمد ولم أقعد إليك بكرم عنصر ولا بحسن منظر وإنما هو عقلى ولسانى

(١) الغول الصداع والخمار، ولا ينزفون يسكرون وتذهب عقولهم، والاثم فى قوله جل شأنه، ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فهو ما يترتب على اقتراف الذنوب والمعاصى من المضار قال أبو نواس:

ولقد نهزت مع الفؤاة بدلوهم
وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فلإذا عصارة كل ذاك اثامُ

فإن رأيت ألا تفرق بينهما فافعل، وقيل لأعرابي: لم لا تشرب؟ فقال لا أشرب ما يشرب عقلي.

وناهيكم بعد ذلك بما يستتبعه ادمان الشراب من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن السكر والعريضة، وإيقاع العداوة والبغضاء والموجلة، ومن تقبيح الحسن وتحسين القبيح واغرائه بالفسوق وتعدي حدود الله وقلة الاكتراث لها - وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «لا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن» ولقد مرت اعرابية يقوم يشربون نبذا فسقوها فلما شربت أقداحا اعترتها أريحية فقالت: أيشرب هذا نساؤكم قالوا نعم قالت إذن زين ورب الكعبة فما يدري أحدكم من أبوه!

* * *

ولاصحاب الشراب ولوع به واستهتار إلى الحد الذي لا يفكرون معه في دين ولا مروءة، قيل لأبي نواس: اتشرب الخمر قال نعم، إذ اشترى بثمان خنزير قد سرق حتى يحرم ثلاث مرات، وهو القائل:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر

ولا تسقني سراً إذا امكن الجهر

فما الغبن إلا أن تراني صاحباً

وما الغنم إلا أن يتعتني السكر

وقيل لشامة: لم تشرب الخمر وهي تزيل العقل فقال: إن زال اليوم لا يزول غداً، وباع بعض الأشراف من أصحاب الشراب ضيعة فقيل له: احضر العشيّة للاشهاد فقال: لو كنت ممن يسان بالعشيّات لما بعث الضيعة، وقال رجل لآخر منهم: لقد وجهت إليك رسولا عشيّة أمس فلم يجداك فقال هذا وقت لا أكاد أجد فيه نفسي، ويقول أحدهم: وددت أنى أكون بعوضة فأموت تحت قرية نبيذ حتى يكون موتى في ظلال نعيم، ولما ولي الحسن بن زيد رضي الله عنه المدينة قال لابن هرمة

الشاعر: لست كمن باع دينه رجاء مدحك أو خوف ذمك فقد رزقني الله بولادة نبيه ﷺ الممادح وجنبني المقابح، وإن من حقه على أن لا أغضى على تقصير في حق ربه وأنا أقسم لئن أتيت بك سكران لأضربنك حدا للخمر وحدا للسكر، ولأزيدن لموضع حرمتك بي فليكن تركك ذلك لله تُعَن عليها ولا تدعها للناس فتوكل إليهم فقال ابن هرمة:

نهاني ابن الرسول عن المدام	وأدبني بآداب الكرام
وقال لي اصطر عنها ودعها	لخوف الله لا خوف الأنام
وكيف تصبري عنها وحيي	لها حب تمكن في عظامي
أرى طيب الحلال على خبثا	وطيب النفس في خبث الحرام

وقيل لرجل من أصحاب الشراب: ما تقول في الماء؟ فقال: هو الحياة ويشركني فيه الحمار، فقيل له: فاللبن قال: ما رأيتَه إلا ذكرت أمي واستحييت قيل: فالخمر قال: تلك السارة البارة شراب أهل الجنة، ودعا الوليد بن يزيد شراعة من الكوفة وهو من فتيانها فلما قدم عليه قال له: إني والله لم أدعك لأسألك عن قرآن أو لأستفتيك في سنة فقال: لو سألتني عنهما لأصبتني فيهما ثورا، فلم دعوتني؟ قال: لأسألك عن الفتوة فقال: أنا دهقانها الخبير وعالمها الطيب فسل فقال ما تقول في نبيذ التمر، قال: اشربه حتى تحمر، قال: فنيذ الدن، قال: اشربه حتى تجن، قال: فالدادي قال احلى من الماذي قال: فنيذ الزبيب فستر وجهه وقال العظمة لله، قال: فالخمر قال لا أرى شربها قال: ولم قال: لأنني لا أؤدى شكرها.

وهذا قليل من كثير ورحم الله من قال:

لم يبلغ الشيخ إبليس ارادته

حتى تكائف في عنقوده العنب

وفي الحق ما يقول ابليس: مهما اعجزني ابن آدم فلن يعجزني إذا سكر أن
أخذ بزمامه فاقوده حيث أشاء واحمله على ما أريد.

* * *

ولربما بلغت جنابة الشراب وادمانه إلى ما يأنف الحيوان الاعجم من اتيانه،
رووا أن قيس بن عاصم أحد أشراف العرب في الجاهلية كان يتردد عليه تاجر
خمر فيبتاع منه ويقيم الخمار في جواره حتى ينفد ما عنده فشرب قيس ذات يوم
فسكر سكرًا قبيحًا فجذب ابنته وتناول ثوبها ونظر إلى القمر وتكلم بشيء ثم
انتهب مال الخمار وأنشأ يقول:

من تاجر فاجر جاء الاله به

كأن لحيته اذئاب اجمال

جاء الخبيث بيسانية تركت

صحبى وأهلى بلا عقل ولا مال

فلما صحا أخبر بما قال وما صنع فألى أن لا يذوق خمرًا أبد الدهر.

وللسكاري فعال تضحك وتبكي، فمن ذلك أن سكرانًا وقع على الأرض فجاء

كلب يلحس فاه فجعل يقول:

اخوكم ومولاكم وصاحب سركم

ومن قد نشا فيكم وعاشركم دهرًا

وقال بعضهم كان في دارنا سكران فقعد على مصلى فتبرز فيه فأخذت بيده

إلى المستراح فنام فيه فقالت جاريتي: يا عجبًا كل شيء منه مقلوب يتبرز حيث بنام

الناس وينام حيث يتبرز الناس، وإن صاحب السكر يصير إما إلى قرديّة وهو الذي

يضحك ويرقص ويحاكي، أو إلى كلبية وهو الذي يهارش، أو إلى خنزيرية وهو

الذي يتقيأ ويتبرز ويتلوث فيهما، ومن هنا كانت الخمر حقيقة لا تتفق والمروءة

والعزة والكرامة، ولا تجتمع والشرف في غمد واحد.

* * *

ومن خصائص الخمر أنها تخرق الكف وتورث السخاء الكاذب حتى:

ترى اللخن الشحيح إذا امرت

عليه لماله فيها مهينا

وكلما تكرر الشراب، تكرر التخرق في الكرم والسخاء فيفضي ذلك على مرّ

الأيام إلى الفقر والفلاكة والشقاء، ويعم ذلك زوج الشارب وولده وكل من يعول،

وإن هذه وحدها لجريمة لا تغتفر، ولو لم يكن ثمت لصاحب الشراب زاجر غيرها

لكان حرّى أن يقلع عنها.

* * *

وقد عُرف أصحاب الشراب بسوء العهد وقلة الحفاظ وأنهم اصدقاؤك ما

استغيت حتى تفتقر، وما عوفيت حتى تنكب، وما غلت دنانك حتى تنزف، وما

رأوك بعيونهم حتى يفقدوك.

أرى كل قوم يحفظون حريمهم

وليس لأصحاب النبيذ حريم

اخاؤهم ما دارت الكاس بينهم

وكلهم رث الحبال سئوم

إذا جئتهم حيوك ألفا ورحبوا

وإن غبت عنهم ساعة فذميم

فهذا ثنائى لم أقل بجهالة

ولكننى بالفاسقين عليم

* * *

وقد تبلغ الخمر بصاحبها إلى أن تشوه خلقه فترى مدمنها يوما وقد عظم أنفه

واحمر وتورم كما يقول شاعر في حماد الراوية:

نعم الفتى لو كان يعرف ربه

ويقيم وقت صلواته حماد

الراهب واهتز ثم غمغم كلمات ترجمها إلينا أبو عبد الله بما يقارب قول الظاني حبيب بن أوس:

ولم أفهم معانيها ولكن ورت قلبى فلم اجهل شجاها
فصرت كأننى اعمى معنى يحب الغائيات ولا يراها
ثم اندفعت تغنى:

آها على بغدادها وعرافها
وظبائها والسحر من احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو اهلتها على اطواقها
متبخترات فى النعيم كأنما
خلق الهوى العذرى من اخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن
فى الدرر تشرق من سنى اشراقها^(١)

فأخذ العليج ينشج نشيجا حارا ويكى بكاء عاليا حتى إذا سكت عنه البكاء قال ما معناه: لقد هاجت لى داء دفيناً، ثم سكت وسكت فضل وسكتنا ومضت السفينة لطيتها.

* * *

وكان سيرنا فى محاذاة الساحل بحيث نبصره رأى العين، وصرنا نسرح النظر فى عمائر وقرى متصلة، وحصون ومعازل فى قلال الجبال مطلة، وقد ارسل الله إلينا ربحاً طيبة رخاء زجت السفينة تزجية طيبة، فكانت تلك الساعة من اطيب ما يظفر به السفر^(٢) فى هذا البحر، وما زلنا فى انعم حال واطيبها حتى استقام ميزان

(١) الأبيات لاحدى الجوارى اللاتى اشترين من المشرق لاحد امراء الانتلس واسمها قمر ذكرها صاحب نفع الطيب.

(٢) المسافرون.

النهار وقام قائم الظهيرة وإذا ذاك ابصرنا عن يميننا تسع جزائر متجاورات أنسنا فيها دخانا يصاعد من جبلين في جزيرتين من هذه الجزائر، فرأيت بعض المسافرين وقد ضربوا بأذقانهم الأرض، لما ألم بهم من الذعر، فقال أبو عبد الله الصقلي لا عليكم أيها الاخوان، ولا تكونن قلوبكم كقلوب الطير، تلمات^(١) كما يلمات الملح في الماء، إن هذه البراكين مأمونة الناحية، وليست تزفر في النهار إلا هذا الدخان الذي ترون، أما البركان المخوف فهو ذلك الرابض في الجزيرة الكبرى «صقلية» وقد ابتعدنا عنه والحمد لله، وهنا سأله بعض القادمين من المشرق الاناضة في وصف هذه البراكين وسر تلك الفظائع التي توارد اخبارها إلى المشرق، فأخذ أبو عبد الله يفيض في القول على طريقته الفلسفية، ولا بأس إذا نحن اثبتنا هنا زبدة قوله اتماما للفائدة.

* * *

البراكين في صقلية

والجزائر المجاورة لها

وما قاله فلاسفة الإسلام في ذلك

قال أبو عبد الله ما ملخصه: من المعلوم الذي لا خفاء به أن هذه الكرة الأرضية السابعة في الفضاء^(٢) بجملتها واجزائها ظاهرها وباطنها طبقات، ساف فوق ساف، مختلفة التركيب والخلقة، فمنها صخور وجبال صلبة، واحجار وجماليد صلبة، ورمال جريشة، وطين رخو، وتراب لين وسياخ وشورج، بعضها مختلط ببعض، أو متجاورة كما قال الله جل شأنه: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ وهي مختلفة الالوان والطموم والروائح، فمن ترابها واحجارها وجبالها حمر وبيض وسود وخضر وزرق وصفر كما قال جل ثناؤه: ﴿ومن الجبال

(١) تنوب

(٢) اخوان الصفاء - ومن ذلك تعلم ان العرب سبقوا غيرهم إلى القول بكرة الأرض وأنها سابعة في الفضاء.

جدد بيض وحممر مختلف ألوانها وغازيب سود) وهى مع ذلك كثيرة التخلخل والثقب والتجاويف والعروق والجداول والانهار داخلها وخارجها، كثيرة الاهوية والمغارات والكهوف، وفيها من أنواع المعادن السائلة والجامنة ما لا يحصى كثرة، وهذه الاهوية والامواه إذا حُمى جوف الأرض بتأثير الشمس فيه كتأثير القمر فى مد البحر وجزره سخنت تلك الامواه ولطفت وتحللت وصارت بخاراً وارتفعت وطلبت مكانا اوسع، فإن تكن الأرض كثيرة التخلخل تحللت وخرجت تلك البخارات من تلك النوافذ، وإن يكن ظاهر الأرض شديد التكاثف حصيفا منعها من الخروج وبقيت محتبسة تتموج فى تلك الاهوية لطلب الخروج، وربما انشقت الأرض فى موضع منها وخرجت تلك الرياح مفاجأة وانخسف مكانها ويسمع لها دوى وهدة وزلزلة، وإن لم تجد لها مخرجا بقيت هناك محتبسة، وتدوم تلك الزلزلة إلى أن يبرد جو تلك المغارات والاهوية ويغلظ وتتكاثر تلك البخارات وتجتمع اجزاؤها وتستحيل إلى ماء وتخر راجعة إلى قاع تلك الكهوف والمغارات وتمكث زمانا، وكلما طال وقوفها ازدادت صفاء وغلظا حتى تصير زئبقا رجراجا وتختلط بترية تلك المعادن وتتحد بها، وقد تستحيل إلى كبريت أو نفض أو غيرهما حسب اختلاف ترب البقاع، فيكون من ذلك ضروب من الجواهر المعدنية المختلفة الطباع - قلنا إن فى الجبال جبالا وفى الأرض ارضين يجوفها كهوف ومغارات وأهوية حارة ملتبية، فهذه الكهوف قد تجرى إليها مياه كبريتية أو نفطية دهنية فتكون مادة لها دائما، فإذا اختنقت هذه المواد بفعل الحرارة ذهبت صُعدا تطلب الخلاص، فقد تكون هذه المواد دخانا صرفا كما هى حال هذين البركانين فى هاتين الجزيرتين، وهذا الدخان يخرج بقوة شديدة حتى لقد يقذف فيه الحجر الكبير فترده ردا قويا وقد تكون هذه المواد احجاراً محترقة ومواد اخرى كبريتية ونفطية نارية تخرج كالسيل العرم فلا تمر بشيء إلا احرقته كما يكون من جبل النار الذى فى الجزيرة نفسها، وترى هذا الجبل يرمى فيما يرمى

بجمر كبير كاعدال القطن يقع بعضه في البر فيصير حجراً أبيض خفيفاً يطفو على وجه الماء لخفته، والذي يقع في البحر يصير حجراً أسود مثقبا تحك به الارجل في الحمامات، وهو كذلك لخفته يطفو على الماء، ومن غريب الامر أنه إذا وقع هذا الجمر على حجر احترق ذلك الحجر واشتعل كما يشتعل القطن حتى يصير ذلك الحجر غبارا كالكحل، أما الحشيش وسائر ضروب النبات فلا تحترق، ولا يحترق إلا الحجارة والحيوان، فكانها نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة^(١).

هذا ويسمى الاهالى عندنا أحد البركانين الموجودين في هاتين الجزيرتين «بركانا» ويسمون الآخر «استبرى» ومعنى بركان واستبرى فيما علمت الرعد والبرق^(٢).

وقد لاحظت أن معادن الكبريت الاصفر لا توجد في الاعم الأغلب إلا بجانب البراكين، ففي هاتين الجزيرتين معدن كبريت لا يوجد مثله بموضع آخر، رأيت ورأيت القطاع الذين يقتطعون، رأيتهم وقد تمرطت شعورهم ونصلت أظفارهم من حره ويلبسه، وهم يذكرون أنهم يجدونه في بعض الأيام سائلا متميما فيتخذون له في الأرض مواضع يجتمع فيها ثم يجدونه في غير ذلك الأوان قد تحجر فيقطعونه بالمعاول، وكذلك ترى بجانب جبل النار الذي في الجزيرة نفسها آبار زيت النفط الذي لا يخرج منها إلا في وقت معلوم من السنة - في شهر شباط وشهرين بعده - فتراهم في ذلك الوقت ينزلون في هذه الآبار على درك ويخمر الرجل الذي ينزل فيه رأسه ويسد مسام أنفه (منخريه) وإن تنفس في أسفل البئر هلك لساعته، وما يستخرجونه من هذا الزيت يضعونه في اوانى فيعلو الدهن منه وهو المستعمل، وذلك كله مما يدل على طبيعة هذه الأرض الغريبة الشأن، والله في خلقه شئون، سبحانه مالك الملك لا إله غيره.

(١) تحفة الالباب.

(٢) تقويم البلدان لأبى الفداء.

مدينة بلرم:

حضرة جزيرة صقلية

ولقائى أميرها أبا الحسين أحمد

كان وصولنا إلى مدينة بلرم بعد انفصالنا من مدينة مسينى يومين كاملين، وكان تعريجتنا عليها دون قصد منا إليه، إذ كانت الريح غير موافقة فى ذلك اليوم وهو يوم الأحد الخامس عشر من شهر جونيوس الرومى سنة ست وخمسين وتسعمائة من مولد السيد المسيح، فاضطررنا أن نقيم فى هذه المدينة ريث أن تأتى الريح الموافقة، ولقد اهتبلت هذه القرصة فجلت فى المدينة جولة وقفت فيها على أشياء كان لا بد من اجتلائها، وقد أسعدنى الحظ فقابلت أميرها من قبل المعز لدين الله الفاطمى أبا الحسين أحمد بن أبى الحسن الكلبي وجرى بينى وبينه حديث سأذكره لك بعد أن أتى على وصف هذه التلمنية، إن شاء الله.

* * *

مدينة بلرم هى حضرة جزيرة صقلية، ققيها الوالى الذى يوليه الفاطمى وفيها قاضى القضاة وديوان الحسبة، ودار الصناعة، وفى مينائها يربض اسطولها الاعظم، ومنها يغدو ويروح مختالا على ثيبح هذا البحر فيغزو ما شاء أن يغزو من جزائره وعدوته الشمالية «جنوب اوربا» وهى لذلك كله ويفضل ما أحدثه المسلمون فيها من فسروب العمران تراها من أجمل المدن وأفخمها، فهى بهذه الجزيرة أم الحضارة، والجامعة بين الحسين غضارة ونضارة، فما شئت فيها من جمال مخبر ومنظر، ومّراد عيش يانع أخضر، تطلع لك بمرأى قتان، وتتخايل بين ساحات وسائط كلها بستان، فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار يحسن منظرها البارح، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكندان^(١) يشقها نهر ينساب فيها

(١) رحلة ابن جبر.

مثل الحية المذعور، أو السيف المشهور، ويطرد في جنباتها أربع عيون زاخرة عليها ارحاء كثيرة لا تحصى.

بلد اعارته الحمامة طوقها
وكساه حلة ريشه الطاوس
وكانما الأنهار في ساحاتها
خمر وكان ساحات الديار كئوس^(١)

وهي تنقسم إلى خمسة أقسام محدودة متباينة متجاوزة فقسم هو المدينة الكبرى التي تسمى بلرم، ويسكنها التجار، وفيها المسجد الجامع الذي كان في القديم بيعة للروم وهو الآن لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المبتكرة من ضروب التصاوير وصنوف التزاويق^(٢) التي ابدعها المسلمون فيه يعد من أعجب عجائب الدنيا^(٣) النامة عن حذق العرب ومهارتهم في الصناعة إلى الحد الذي لا وراءه، وفي هذه المدينة وفي أقسامها الأخرى نيف وثلاثمائة مسجد^(٤) ولم أر مثل هذا العدد في بلد من البلدان، ومن غريب الأمر أني كنت واقفا في جوار دار أحد الفقهاء الاعيان في هذه المدينة وهو أبو محمد القفصي الوثائقي فبصرت قريبا من مسجده على مقدار رمية سهم عشرة مساجد، ومنها المسجد تجاه المسجد لا يفصلهما إلا الطريق، وأغرب من ذلك أن من بين هذه العشرة المساجد، وإلى نحو عشرين خطوة من مسجد الفقيه القفصي المذكور مسجدا لابنه ابتناه ليتفقه فيه، منعزلا عن أبيه^(٥) وهذا عمر ك الله مما يستشف الناظر من ورائه ابهة القوم واعتزازهم بسلطانهم وأنهم سادة هذه البلاد، ولا جرم كان ذلك

(١) ابن اللبانة الشاعر الاندلسي.

(٢) الادريسي.

(٣) ذكر هذا الجامع بما لا يخرج عما ذكرناه نحن كل من الادريسي وابن حوقل.

(٤) ابن حوقل.

(٥) ابن حوقل.

باعثا لهم على التنافس في المفاز والمكارم وسائر خلال الخير والكمال، وهو معنى من المعانى التي يستتبعها الملك والغلب والسلطان^(١) أما القسم الثاني من أقسام بلرم فهو المعروف بالخالصة، وهو مقام الوالى وأتباعه، وليس فيه اسواق ولا فنادق، وبه حمامان، وفيه مسجد جامع مقتصر صغير، وفيه حبس الوالى ودار صناعة البحر والديوان - والاقسام الأخرى الثلاثة، فقسم يعرف بحارة الصقالبة، وهذا القسم أعمر من القسمين السابقين وأجل ومرسى البحر به، وآخر يسمى حارة المسجد وثالث يسميه القوم الحارة الجديدة، وأكثر الاسواق في هذا القسم كسوق الزياتين والصيدارفة والصيدالة والخرازين والصيداقل والنحاسين وسوق القمح وسائر الصناع على اختلافهم، وفي هذه الحارة الجديدة نحو من خمسين ومائة حانوت لبيع اللحم، وهذا مما يدل على استبحار العمران في هذه الجزيرة ورخاء أهلها وكثرة عديدهم، فسبحان المعز لمن يشاء.

* * *

ولقد حدثني الفقيه الوثائقي حديثًا يجعل بنا أن نجلوه لك الآن قال^(٢) إن المسلمين لما فتحوا هذه الجزيرة، وبلاد قلوورية^(٣) من بر الأرض الكبيرة^(٤) واستوثق لهم الأمر، ومدت لهم امم الفرنجة يد الاذهان اخذوا حسب عادتهم في كل بلاد يفتحونها بنية الإقامة فيها، واصلاح حال اهليها، في أن يستتقنوا هذه البلاد من تلك الحمأة المتنتة التي كانت مرتظمة فيها أيام حكم الروم، فتشروا في البلاد الوية العدل، وعمدوا إلى الزراعة فانتعشت بعد صرعتها، وإلى التجارة فهبت من رقدتها، وإلى الصناعة فانتاشوها من وهدتها، ووثب الاهلون وثبة كأنما أنشطوا من

(١) ابن خلدون في مقدمته.

(٢) هذا الحديث من أوله إلى آخره إنما هو من تليفنا لفظًا ومعنى وكل ما هنالك أنا اهتمدنا في عصارته التاريخية على ما ترجمه لنا أحد اصديقنا من كتاب حضارة العرب لجوستاف لويون خاصا بصقلية.

(٣) كلابرية «جنوب ايطاليا».

(٤) اورويا.

عقال، فكثرت الاموال، واغدودقت الخيرات إلى الحد الاقصى، وافتن الناس افتنانهم في ضروب الترف والنعيم واتساع العيس والتأنق فيه والتلون بأزهى الوانه، قال الفقيه: أما عدل المسلمين فإنك لتجد نصارى هذه البلاد لا يكاد المسلمون ينمازون عنهم بشيء، فالجميع يرتعون متحبين متحابين، وكل ممتنع بعيشه وعقيدته وطقوسه فللنصارى كنائسهم كما أن للمسلمين مساجدهم، وإذا جاء عيد من الاعياد رأيت اعلام النصارى بجانب اعلام المسلمين، أما علم النصارى فقد صور فيه صليب مذهب في بؤرة ساحة حمراء، وعلم المسلمين قد رسم فيه حصن اسود في ساحة خضراء^(١) أما نساؤهم فربما رأيتهن اليوم «الاحد» وهن ذاهبات إلى الكنائس، وقد تشبهن بنساء المسلمين، لأن المغلوب كما تعلم مولع دائماً بتقليد الغالب، فانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الاخفاف المنهبة ولبسن الحرير الموشى بالذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وتزين بكل ما يتزين به المسلمات^(٢).

إن من يدخل الكنيسة يوماً

يلق فيها جآذراً وطلباء

وليس يطلب من النصارى سوى تلك الاتاة التافهة المفروضة عليهم تلقاء قومة السلطان على الرعية، وهى ديناران يؤديهما غنيهما، ودينار واحد يؤديه صناعهم وارياب الحرف منهم، أما النساء والاطفال فليس شيء بمفروض عليهم^(٣) وهم يقرون بأنهم لم يذوقوا طعم هذا العيش الاخضر إلا على عهد المسلمين وأما الزراعة فقد شققنا الأنهار، واحتفرنا الجداول، واقمنا عليها القناطر الحاجزة^(٤)

(١) حضارة العرب للدكتور جوستاف لويون.

(٢) ابن جبير.

(٣) جوستاف لويون.

(٤) قال الدكتور لويون أن العرب هم الذين حفروا الترع التي لا تزال باقية إلى الان وهم الذين اخترعوا الاهوسة ذوات الحواجز وكانت قبلهم مجهولة.

واحيينا الأرض الغامرة، فأخصبت ودرت وريت، وأخذت زخرفها وازينت، وجلبنا إلى هنا كثيراً من الأشجار والأزهار وضروب النبات التي لم يكن ليعرفها أهل البلاد الأصليون مثل القطن والقصب وشجر الزيتون^(١) والبردي^(٢) الذي لا يوجد إلا في مصر وكثير غير ذلك.

وأما الصناعة فقد خطت بفضل المسلمين خطوات بعيدة المدى فاستشرنا دقائن الأرض ومعادنها من الفضة والنحاس والرخام والحديد، ومهر المسلمون في ضروب الصناعات الشتى الألوان، فحذقوا صنع الحرير والصبغة وما إليها^(٣) وكذلك تراهم قد برعوا وأربوا وتفوقوا في سائر العلوم الصناعية بله الأديبة والدينية والفلسفية حتى إن الفرنجة لانبهارهم من براعة المسلمين فيما بلغنى يقرفونهم بالسحر^(٤) وما هو عمرك الله بالسحر، إن هو إلا تسنمهم ذروة الكمال، وهوى هذه الأمم الحمراء إلى الحضيض الأوهل.

والنجم تستصغر الأبصار صورته

والذنب للطرف لا للنجم في الصفر

(١) جوستاف لويون.

(٢) ابن حوقل.

(٣) قال الدكتور لويون: إن العرب هم الذين ادخلوا في البلاد صناعة الحرير وأن في نورمبرج رداء من الحرير مما كان يلبسه امراء صقلية عليه كتابه بحروف كوفية، قال: وكل شيء يبعث على الاعتقاد بأن صناعة صباغة الاقمشة إنما انتشرت في اورويا من صقلية.

(٤) اورد الدكتور لويون هذه الحكاية بعد أن ذكر ان الرهبان كانوا ينسبون مخترعات العرب إلى السحر قال، في احدى حملات النورماندين الذين طرأوا على صقلية في اواخر ايام العرب في صقلية استكشف الكونت رويارت ويسكرد تمثالا قائما على عمود رخام متوجاً بدائرة من البرنز محفور عليها هذه الكلمات «سيكون لى في أول مايو عند طلوع الشمس تاج ذهبي» فلم يدرك احد مغزى هذه الكلمات غير ان عربيا من صقلية كان اسيراً لدى الكونت افهم رويارت أنه يدرك معناها الخفى وانه إذا وعده اطلاق سراحه فسرهما له فلما وعده رويارت نصح له الاعرابى أن يحضر في أول مايو عند طلوع الشمس في المكان الذى يتتهى إليه ظل التمثال ففعل الكونت ذلك فوجد كنزاً هائلا لا تقدر قيمته.

وأما التجارة فلعلك قد شاهدت كثرة السلع والبضائع المجلوبة إلى هذه البلاد، والحوائيت والمتاجر المتكاثرة في شوارع البلد، وكذلك عساك قد أبصرت الحركة المباركة في مينائنا وعمال المكوس فيها مما تتحقق منه أن الجزيرة قد شأت شأواً بعيداً في التجارة بفضل نشاط المسلمين وإقدامهم وبعدهم همهم، وكل ذلك بما أثر فيهم روح هذا الدين القويم وآدابه الالهية.

لقائى الامير ابا الحسين محمد

ابن ابي الحسن الكلبى

والى جزيرة صقلية

إنى لجالس مع الفقيه الوثائقى فى مسجده بعد أن تغدينا وصلينا صلاة الظهر ثم اخذنا بأطراف الأحاديث بيننا إذ دخل علينا المسجد خادم من قبل الأمير، فذعر الفقيه عندما أخذت عينه هذا الخادم، فذعرت لذعره، ثم قال الخادم: إن الأمير يدعوك الساعة إليه ومعك ضيفك المصرى، فقلت للفقيه: أتم ما يخاف منه فأفرخ رَوْعى^(١) وقال: الآن لا أظن نمت شيئاً أكثر من رغبة الأمير فى أن يستطلع منك طلع مصر والمصريين، واميرنا - حفظه الله - من خواص أهل الأدب وعليتهم، وإنه لدو حظ عظيم من رجاحة العقل وسجاجة الخلق يحب الادياء ويقربهم إليه ويتحدث معهم كما يتحدث النظير مع النظير، على أن اليوم فى صقلية كأنه عيد من أعياد الاهلين، إذ كان قد ورد من أيام على الامير كتاب من أمير المؤمنين المعز لدين الله بأمر الامير فيه باحصاء اطفال الجزيرة وأن يختتمهم ويكسوهم ويحبوهم بالمطايا فى اليوم الذى يختن فيه ولد أمير المؤمنين، فكتب الامير خمسة عشر ألف طفل ثم اختن ولده واخوته وقد أمر اليوم باختان سائر اطفال الجزيرة وخلع عليهم وفرق فيهم مائة ألف درهم وخمسين حملاً من الصلات وردت عليه من امير المؤمنين^(٢) فكيف نتوقع شراً من الأمير فى مثل هذا اليوم المبارك.

(١) أذهب خوفى.

(٢) تلهيه أبى الفداء.

وقد كان مع الخادم بغلتان فارهتان من مطايا الأمير وقد جُلِّتَا بالديباج وحُلِّيتَا
بالفضة، فركبت أنا والفقيه وسرنا حتى وصلنا إلى دور الامارة فوقعت عيني على
شيء لم تقع على مثله من قبل:

قصور كالكواكب لامعات

يكدن يضمن للساى الظلاما

* * *

وقبة ملك كأن النجو م تفضى إليها باسرارها
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بانوارها

* * *

كأن جن سليمان الذين ولو ابداعها فادقوا فى مغانيها

ولما أن وصلنا إلى دور الامارة أشار علينا الخادم بالنزول وأسلمنا إلى
الحجاب فساروا بنا فى ممر مفروش بالحصباء تتخللها الفسيفساء، ثم سلخوا بنا
حدائق فيحاء، مترامية الانحاء، قد اغلولت فيها الاشجار، وتعلقت باغصانها
الاطيار، وانسربت فيها الجداول والانهار، واعشوشبت فيها النجوم^(١) والازهار:

والجو من ارج الهواء كأنه ثوب يعبر تارة ويمسك

وما زلنا إلى أن انتهينا إلى قصر الأمير، فرجع الحجاب بعد أن اسلمونا إلى
الحجاب المقربين، فرقى بنا هؤلاء سلما ينتهى بالراقى عليه إلى بهو عظيم يملأ
صدر الناظر إليه مهابة وجلالا، فاجتزناه واجتزنا بعده غرفا ومقاصير عدة حتى
انتهينا إلى مجلس الأمير وناهيك به مجلسا لم أر ما هو أحق منه بقول من قال:

قصر لو أنك قد كحلت بنوره

اعمى لعاد إلى المقام بصيرا

(١) كل ما نجم من نبات الأرض.

أبصرته فرأيت أبداع منظره
ثم انشيت بناظري محسورا
فظننت أنى حاله فى جنة
لما رأيت الملك فيه كبيرا
تجرى الخواطر مطلقا أعتة
فيه فتكبو عن مداه قصورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما
جعلت لها زهر النجوم ثغورا
وإذا الولائد فننحت أبوابه
جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم
فغرت بها أفواهها تكبيرا
فكأنما لبدت لتهمصر عندها
من لم يكن بدخوله مأمورا
ومصفح الأبواب تبرأ نظروا
بالنقش فوق شكوله تنظيرا
وإذا نظرت إلى غرائب سقفه
أبصرت روضا فى السماء نظيرا
وضعت به صناعاتها أقلامها
فأرتك كل طريدة تصورا
وكأنما للشمس فيه ليقة
مشقوا بها التزيق والتشجيرا^(١)

(١) الأبيات لابن حمد يس وقد تمثلنا بها على الرغم من تأخر زمنه عن زمن الرحلة وبحسب القارى تبييه إلى ذلك.

فلما أقبلنا على المجلس غلبني البهر من جلاله الأمير، فسلم الفقيه الوثائقي، ثم سلمت بعده بالامارة فردّ على السلام باشا في وجهي واذن لنا بالجلوس، وقد كان قاضي القضاة جالساً عن يسار الأمير، ثم أخذنا الأمير في أحاديث شتى يقصد بها لعله أن يؤنسني وينفي الوحشة عن ساحتي وبعد أن آنس مني الأنس به قال: أيّ متوى يتوى أخونا المصري إن شاء الله، فقلت: إنى أنتوى يا مولاي القطر الاندلسي، فقال: ومتى زابل مصر، فقلت: منذ نيف وعشرين يوماً، فقال: وكيف فارتها؟ فقلت: على أحسن حال يا مولاي الأمير، فقال: وكيف حال الأمير انوجور وحال كافور معه^(١) فقد اتصل بنا أن كافورا قد استبد به وغلبه على أمره، فقلت: إذا كان كافور يا مولاي قد استبد بالامير انوجور فإن المصريين قد استبلوا بكافور، فقد أصبح كافور للمصريين لا لنفسه ولا للأمير، فسيرته فينا عادلة رشيدة، وحاله معنا جميلة سدينة^(٢) لأنه يعلم أن الملوك إنما هم خدام الرعية فكيف يظلمونها ويستجيزون كيدها، ولم يستعبدون الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً؟ على أن كافور ليس هو وحده الذي ينهض باعباء الملك، وإنما يشد أزره، ويشاركه أمره، وزيرنا الأعظم أبو الفضل جعفر بن القرات وغيره من رجالات الدولة، فقال الأمير: ولكن أليس أبق بكم وأسمى وأبيل أن يلي أمركم ابن بنت رسول الله ﷺ أمير المؤمنين المعز لدين الله، وأنت تعلم أيها الأخ أن العباسيين قد ضعف

(١) كان يلي مصر في ذلك الوقت من قبل العباسيين أبو القاسم انوجور الاخشيدى ولصفره كان أبو المنك كافور وهو الذي اشتره محمد بن طفيح الاخشيد من رجل مصري يسمى محمود بن وهب بن عباس بنماتية عشر ديناراً وجعله أتابك ولديه فكان كافور فيما على انوجور مستبداً طبعاً بالامر دونه وكانت الدولة الفاطمية المتولية على طرابلس وتونس والجزائر ومراتش في ذلك العهد طامعة في أخذ مصر وفعلاً فتحها بعد ذلك بضع سنوات بعد موت كافور.

(٢) كان كافور كما يقول ابن خلكان من اعظم الملوك جوراً كثير الخشية له والخوف منه وكان يجلس للمظالم بنفسه في كل سبت وكان يرغب في أهل الخير ويمطهم وقد امتدحه المتنى بقصائد عدة.

أمرهم، وتضعضت حالهم، والثالث عليهم ملكهم، وانتزى الاعاجم والأتراك على البلاد فاقتطعوا الممالك منهم وتفردوا بالأمر دونهم^(١) أما عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس فقد اكتفى بما فى يده من الممالك المترامية الأطراف، فلم يبق إلا أن تستظلوا بظل خلفائنا الفاطميين حتى يحموكم ويردوا عنكم طمع الطامعين، وهنا طار طائر الغضب إلى رأسى فلم ألبث أن اندفعت قائلاً: إن مولاي الأمير - حفظه الله - يعلم أنه إذا عدّ من أظلم الظلم وأنكر النكر أن ينقض جارح من الجوارح على وكر طائر آمن فى سره فيزعجه فى سكنه، وينقص عليه عيشته، ويستلبه سراحه وحرية، ويضطره إما إلى الظن إلى جو غير جوه، أو الإقامة بجواره بين مخلبه وظفّره، فإن من الظلم الذى لا ظلم وراءه أن تعدو أمة على أخرى وحقبتها فى ذلك أن تحميها من طمع الطامعين، أليس من السفىطة، وأعد ما يقال فى باب المغالطة، أن يعدو قوم على قوم بحجة أن هذا العدوان إنما هو وقاء لهم من عدوان آخرين؟ ولم لا تبدأ هذه الأمة بنفسها فتريح غيرها من عدائها، إن مولاي الأمير ليعلم أن حب الوطن من الإيمان ويقول رسول الله ﷺ: «حب الوطن من طيب المولد» ويقول: «لولا حب الوطن لخربت بلاد السوء» على أن فطرة الإنسان معجونة بحب وطنه، ولذلك يقول بقراط: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، ويقول جالينوس: يتروح العليل بنسيم بلده كما تتروح الأرض الجذبة ببلل القطر، ويروى أنه لما أسر سابور بيلد الروم قالت له بنت الملك - وكان قد مرض وعشقتة - ما تشتهى؟ قال: شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر فحملاً إليه فبرأ وأبلّ من مرضه، والكريم يا مولاي يحن إلى جنابه، كما يحن الأسد إلى غابه،

(٢) كان الخليفة العباسى فى ذلك الوقت هو المطيع له وفى أيامه كانت فارس فى يد معز الدولة ابن بويه والموصل وديار بكر ومصر وربيعة فى يد سيف الدولة بن حمدان ومصر والشام فى يد الأخشيدي والبصرة فى يد ابن رائق وخوزستان فى يد البريدى وكرمان فى يد أبى على بن الياس واصفهان والجبيل يتنازعها آل نويه ومرداويج وما وراء النهر فى يد بنى سامان وطبرستان وجرجان فى يد النيلم والبحرين واليمامة فى يد القرامطة وذلك عند الأندلس والمغرب.

وكفى دلالة على محبة الوطن قول الله جل شأنه: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا
أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه﴾ الآية ومن ثم كان الأم بيت قالته العرب
قول القائل:

تلقى بكل بلاد إن حللت بها

ناساً بناس وإخوانا باخوان

فلا جرم أن يتغلغل حب مصر والمصريين في السواد من حبة القلب منى،
حتى لكأنى المعنى بقول من يقول:

كان فؤادى من تذكره الحمى

وأهل الحمى يهفون به ريش طائر

وكيف لا أحب بلدا ولدت فيه، وأرضه هي أول أرض مس جلدى ترابها،
وقد طعمت غذاءها وشربت ماءها النмир، ماء نيلها المبارك الذى يعذر الاقدمون
عن زعمهم أن الجنة منبعه انسرب منها إلى هذه الخضراء:

بلد صحبت به الشبيبة والصبي

ولبست فيه العيش وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيت

وعليه أفنية الشباب تميد

* * *

ألا يا حبيبنا وطنى وأهلى

وصحبنى حين يُذكر الصحاب

وما غسل ببارد ماء مزن

على ظمأ لشاربه يشاب

بأشهى من لقائكم إلينا

فكيف لنا به ومضى الأياب

ومولاي الأمير يعلم علمًا ليس بالظن أن الحكام الغرباء عن البلاد مهما كانت منزلتهم من العدل لتأبى عليهم سنة الله في خلقه إلا أن يضيفوا الرعية التي لا تمت إليهم برحم أو أصرة موطن، أما رهط المرء فرحم الله من قال:

لعمري لرهط المرء خيرٌ بقيّةً
عليه وإن عالوا به كل مركب
إذا كنت في قومٍ عداءً^(١) لست منهم
فكل ما علفت من خبيث وطيب
لذلك كله أقول وأنا آمن الأمير:

ولى وطن آليت أن لا ابيعه
وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا^(٢)

وهنا اطرق الأمير ثم انبعث قاضى القضاة قائلاً: أظن اخانا المصرى لا يغيب عنه أن الأرض قد ملئت اليوم جوراً وظلماً وعدواناً، وذاع الفساد فى البلاد، وعم الشر وطم، فلا بد من إمام عادل يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، ولا يكون هذا الإمام إلا من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وها هو ذا قد صدق رسول الله وعده وجاء إلينا إمام المسلمين العادل الرحيم البار برعيته، الداعى إلى

(١) غرباء.

(٢) البيت من أبيات لابن الرومى يقول فيها بعد هذا البيت:

عهدت به شرخ الشباب ونعمة
كنعمة قوم اصبحوا فى ظلالكا
فقد الفته النفس حتى كأنه
لها جسد أن بان غودر هالكا
وحسب اوطان الرجال إليهم
مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم
عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

الحق والقائم بنصرته، مولانا وابن مولانا المعز لدين الله ابن مولانا المنصور ابن مولانا القائم ابن مولانا عبيد الله المهدي أدام الله تأييده، هذا إلى أنه لا يوجد اليوم بين ملوك المسلمين من هو اعز من مولانا نفرًا، وأكثر مالا ووفرًا، وأقوى سلاحًا وشوكة، وأبعد في سياسة الأمم تجربة وحنكة، فكان لذلك من الواجب المحتم على كل مسلم أن يعمل على نشر دعوته، ويستظل برعايته، فما كاد قاضي القضاة يتم كلامه حتى ابتدرت فقلت: إن المصريين لا ينكرون على أمير المؤمنين المعز لدين الله شيئًا مما قلت بيد أن مولانا - حفظه الله - يعرف مما عرف من طبائع البشر أن الأمة التي تغلب على امرها، ويخفق عليها لواء غيرها، وتصيح بالاستبعاد آلة لسواها وعالة عليها، يقصر أملها، ويلى رجاؤها، وتضوى ارواحها:

واحتمال الاذى ورؤية جانيه - غذاء تضوي به الاجسام

وذلك لما خضد الغلب عليها من شوكتها، وكسر من حميتها، فيفضى ذلك على كسر الأدهار، وتعاقب الليل والنهار، إلى أن ترام الذل^(١) والاستخذاء، وتشتمل بأردية الكسل والوناء، فيكون من نتاج ذلك ضعف النشاط في القوى الحيوية وهلم حتى يتناقص عمرانهم وتتلأشى مكاسبهم ويعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، فيصبحوا مغليين لكل متغلب، طعمة لكل آكل، نهبًا مقسمًا، لكل ناهب، وثمت شيء آخر وهو أن الإنسان يا مولاي رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له، والرئيس إذا غلب على رئاسته، وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شيع بطنه وري كبده وهذا سر ركب في غرائز البشر كما أنه وجد مثله في الحيوانات المفترسة، فإنها لا تسافد كما يقولون إذا كانت في ملكة الأدميين.

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

* * *

وهنا كان الامير اراد أن يُطَوِّى بساط هذا الموضوع فانتقل فجأة إلى معنى آخر فقال: هل يحفظ اخونا المصرى شيئاً مما مدح به المتنبى الشاعر كافورا؟ وهل لا يزال هذا الشاعر مقيماً في مصر؟ فقلت: نعم يا مولاي الأمير، لقد فارقت مصر ولما يزل المتنبى في خدمة مولانا الاستاذ أبى المسك كافور، ولقد امتدحه بأحسن المدح، وحق له أن يمتدحه، إذ اللها يا مولاي تفتح اللها^(١) كما يقولون، فمما يعلق بالذاكرة مما انشدنيه، قوله فيه، بعد أن وصف الخيل التي سرت به إليه:

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه
وخلت بياضاً خلفها وماقيا
وقوله من قصيدة:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه
وإن لم أشأ تملى على فأكتب
إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه
ويمم كافورا فما يتغرب
وفي هذه القصيدة يقول:

وما الخيل إلا كالصديق قليلة
وإن كثرت في عين من لا يجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها
واعضائها فالحسن عنك مغيب
لحا الله ذي الدنيا مناخا لراكب
فكل بعيد الهم فيها معذب

(١) اللها الأولى بضم اللام جمع لهوة وهى العطية واللها الثانية بفتح اللام لهاة وهى هناة حمراء فى الحنك معلقة على عكدة اللسان.

وله فيه قصيدة مطلعها:

أود من الأيام مــــا لا تورده
 واشكو إليها بيننا وهي جنده
 يقول فيها من حكمته البالغة:

وأتعب خلق الله من زاد همــــه
 وقصر عما تشتهي النفس وجده
 فلا ينحلل في المجد مالك كله
 فينحل مجد كان بالمال عقده
 ودبره تدبير الذي المجد كفه
 إذا حارب الأعداء والمال زنده
 فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
 ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
 إلى أن يقول:

وما رغبتى في عسجد أستفيده
 ولكنها في مفخر أستجده
 وقوله فيه من أخرى مطلعها:

من الجآذر في زى الأعراب
 حمر الحللى والمطايا والجلابيب

* * *

كان كل سؤال في مسامعه
 قميص يوسف في أجفان يعقوب
 إذا غزته أعاديه بمسألة
 فقد غزته بجيش غير مغلوب

ويعجبني من نسيب هذه القصيدة قوله:

كم زورة لك فى الأعراب خافية
أدهى - وقد رقدوا - من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأثنى وبياض الصبح يغرى بى

إلى أن يقول:

ما أوجه الحَصْر المستحسنت به
كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفى البداوة حسن غير مجلوب

فقال الأمير: بيد أنه بلغنى اليوم فقط أن المتنبى زایل مصر بأخرة وهجا كافورا
هجاء قاسيا مرا بأبيات يقول فيها:

لقد كنت أحسب قبل الخصى
أن الرءوس مقمر النهى
فلما نظرت إلى عقله
رأيتُ النهى كله فى الخصى
وماذا بمصر من المضحكات
ولكن ضحك كالبكى
بها نبطى من أهل السواد
يدرس أنساب أهل الملا
وأسود مشفره نصفه
يقال له أنت بدر الدجى

وشِعْرٍ مَدَحَتْ بِهِ الْكَرْكِدْنَ
 بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرَّقِيِّ
 فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ
 وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْسًا وَالْوَرِي

إِلَى أَنْ يَقُولَ:

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ
 رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

فقلت: إذا كان قد هجاه فقد قال الله جل شأنه: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «شر الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه» ورحم الله من يقول لا تؤاخ شاعراً فإنه يمدحك بضمن ويهجوك مجاناً، على أن المتنبي رجل ذو طماعية وطماح، وكان مولاي الأستاذ أبو المسك وعده بولاية بعض أعماله فلعله رأى منه بعد ذلك ما لم يستطع معه الوفاء بما وعد^(١) فقال فيه المتنبي ما قال، قال الأمير ولكن للمتنبي في سيف الدولة ابن حمدان وفي غيره ما هو أبرع مما مدح به كافورا، ويعجبني من قصيدة له في ابن حمدان قوله:

إِذَا مَا سَرَّتْ فِي آثَارِ قَوْمِ

تَخَاذَلَتْ الْجُمَا جَمِ وَالرَّقَابِ^(٢)

(١) رووا أن كافورا كان قد وعد المتنبي بولاية بعض أعماله فلما رأى تعاليه في شعره وسموه بنفسه خافه وعتب فيه فقال يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد أما يدعى المملكة مع كافور.

(٢) أوضح هذا المعنى أبو بكر الخوارزمي فذكره في ثلاثة أبيات قال:

وَأَوْجِبْتَ السِّيَاسَةَ أَنْ يَبِيدُوا	وَكُنْتُ إِذَا نَهَدْتَ لَغْزَوْ قَوْمِ
وَجَاءَ إِلَيْكَ يَمْنُنُذِرُ الْحَدِيدِ	تَبَرَّاتِ الْحَيَاةِ إِلَيْكَ مِنْهُمْ
وَأَنْكَرَ مَحَبَّةَ الْعَتَقِ الْوَرِيدِ	وَطَلَّقْتَ الْجُمَا جَمِ كُلَّ تَحْفِ

إلى أن يقول:

وكـيـف يتم بأسك فى أناس
تصيبهم فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى عليهم
فإن الرفق بالجاني عتاب
وأنت حياتهم غضبت عليهم
ومجر حياتهم لهم عتاب
وما جهلت أياديك البوادي
ولكن ربما خفى الصواب
وكم ذنب مـولـده دلال
وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم
وحل بغير جارمه العذاب

وقوله فيه من قصيدة:

يقود إليه طاعة الناس فضله
ولو لم يقدها نائل وعقاب
أيا أسدا فى جسمه روح ضيغم
وكم أسد أرواحهن كلاب

وفى هذه القصيدة يقول:

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه
ولو أن ما فى الوجه منه حراب
لها ظفر إن كل ظفر أعده
وناب إذا لم يبق فى الفم ناب

بغير منى الدهر ما شاء غيرها
وأبلغ أقصى العمر وهي كعباب

إلى أن يقول:

وللسر منى موضع لا يناله
نديم ولا يفضى إليه شراب
وشه هو إذ يقول في كلمة له:

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقا وقينة
فمات المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضربت أعناق الملوك وأن تُرى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوما كأنما
تداولُ سمعَ المرءِ أنمله العشر
إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبة فالفضل فيمن له الشكر
ومن يتفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالذى فعل الفقر

ثم قال الأمير: وهل لا يرى أخونا المصري لأبي القاسم ابن هاني الاندلسي
شاعر أمير المؤمنين المعز لدين الله ما يستاهل به أن يلزَّ مع المتنى في قرن^(١)
فقلت: إني أخشى يا مولاي أن أصرح برأى، فقال: قل وأنت آمن، فقلت إني لا

(١) يجاربه ويتساوى به.

أشبهه يا مولاي إلا برحى تطحن قرونا^(١) وإنى كلما أنشدت شعره فكأنى أسمع
جمعمة ولا أرى طحنا، فأريد وجه الأمير غضباً ثم تحالم وقال:
وهل يقال مثل هذا فيمن يقول:

يا بنت ذى السيف الطويل نجاده
اكذا يجوز الحكم فى ناديك
عيناك أم مفنك موعلنا وفى
وادي الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنة الكرى وسروا فلو
عششروا بطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة
لما تمايل عطفك اتهموك
حسبوا التكحل فى جفونك حلية
تالله ما بأكفهم كحلوك
وجلوك لى إذ نحن غصنا بانه
حتى إذا احتفل الهوى حجبوك

ويقول من أبيات فى وصف الخيل:

ن بين الضلوع وبين الحشى	تكاد تحس اختلاج الظنو
ومن علوها أنها لا ترى	ومن رفقها أنها لا تحس
يراعا برين لها بالمدى	وتحسب اطراف آذانها
إذا ما جرى البرق فيها كبا	جرين إلى السبق فى حلبة
مكرمة عن مشيد البنا	ديار الاعزة لكننها

(١) هذه الكلمة لأبى العلاء قالها لما سمع شعر ابن هانى.

وهل لمولانا المعز الذي يقول مثل هذا الشعر:

اطلع الحسن من جبينك شمسا

فوق ورد في وجتـيك اطلا

وكأن الجمال خاف على الورد

جفافا فمد بالشعر ظلا

أن يقرب ابن هانيء إليه ويؤثره على غيره ويعتز به ويفاخر لولا أن رآه من الشعر بحيث لا يكاد يتخلف عن المتنبي؟ بلى وإذا كان في المشرق المتنبي ففى المغرب ابن هانيء، وإذا كان فيه عبد الله بن المعتز فعندنا ابن مولانا المعز - الامير أبو على تميم^(١) الذي يقول:

وكما يمل الدهر من اعطائه فكذا ملالته من الحرمان

(١) كان تميم بن المعز شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفاً ولم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لآخيه العزيز فولياها بعد أبيه المعز وقد توفي تميم بمصر سنة ٣٧٤هـ وله شعر جيد يشبه شعر ابن المعتز، فقد كان يحتذى مثاله ويقف في التشبيهات بجانبه ويفرغ فيها على قلبه، ولا بأس بان نورد هنا قطعاً مختارة من شعره اشادة بذكره وتنويها بقدره لأنه يظهر أن كثيراً من ادباء هذا الجيل لا يعرفونه حق معرفته فمن قوله:

ء وجنح الظلام مرخى الازار
ورواب منيفة وصحار
وتجيب القبان فيها القمارى
وكان النجوم فيها مدارى
فى يد الأفق مثل نصف سوار

رب صفراء عللتنى بصفراء
بين ماء وروضه وكروم
تثنى به الفصون عليها
وكان الدجى غداثر شعر
وانجلى الغيم عن هلال تبدى
ويقول:

ودعا دمع مقلتيها انسكاب
فالتقى الياسمين والعناب
ب رياء وهمه الاعتاب
من كما يصبغ الخدود الشباب
ويدا طيلساته ينجباب
والدجى بين مخلبيه غراب
وكان النجوم فيها حباب
وكان الدجى عليها قراب

عتبت فانتنى عليها العتاب
وسمت نحو خدها بيديها
رب مبلدى تعنت جعل العت
فاسقينها مدامة تصبغ الكا
ما ترى الليل كيف رق دجاء
وكان الصباح فى الافق باز
وكان السماء لجة بحر
وكان الجوزاء سيف صقيل

- ويقول:

وزنجية الآباء كرخية الجلب
عبيرية الانفاس كرمية النسب
كميت بزلنا دنها فتفجرت
بأحمر قان مقل قطر من الذهب
فلما شربناها صببونا كأننا
شربنا السرور المحصن واللهو والطرب
ولم نأت شيئًا يسخط المجد فعله
سوى أننا بعنا الوقار من اللعب
كان كنوس الشرب وهي دوائر
قطائع ماء جامد تحمل الذهب
يمد بها كفا خضيبا يديرها
وليس بشيء غيرها هو مختضب
فبتنا نسقى الشمس والليل راكد
ونقرب من بدر السماء وما قرب
وقد حجب الغيم الهلال كأنه
ستارة شرب خلقها وجه من أحب
كان الشريا تحت حلقة لونها
سداهن بلور على الأرض تضطرب

ويقول:

كان السحاب الفر اصبحن أكؤسا
لنا وكان الراح فيها سنا البرق
إلى أن رأيت النجم وهو مغرب
وأقبل رايات الصباح من المشرق
كان سواد الليل والصبح طالع
بقايا مجال الكحل في الأعين الزرق

ويقول مفتخرًا:

ويفل أقدامى شبا الحدثان	ألقي الكمي فلا أخاف لقاءه
للموت حين يفكر كل جبان	وأكر في صدر الخميس معانقًا
ذرعًا بأيامي وغدر زماني	وعلمت أخلاق الزمان فلم أضق
فكذا ملاتته من الحرمان	وكما يمل الدهر من اعطائه
فكذا يكر لممشر بهوان	وكما يكر لممشر بسعادة

ويقول:

وما أم خشف ظل يوما وليلة
 يبلقمة يبضاء ظمآن صاديا
 تهيم فلا تدرى إلى أين تنتهى
 مولهة حيرى تجوب الفيافيا
 أضرّ بها حر الهجير فلم تجد
 لغلها من بارد الماء شافيا
 فلما دنت من خشفها انعطفت له
 فألفتة ملهوف الجوانح طاويا
 بأوجع منى يوم شدت حمولهم
 ونادى منادى الحى أن لا تلاقيا

فلسوف يأتى بعدها بليان
 ومل الحوادث عن ثبات جناتى
 بين المعزائم واهن الأركان
 ألفا ولا أهوى سوى الاحسان
 قطع السيوف القاطعات لسانى

فلإذا رماك بشدة فاصبر لها
 ومل اللبالي عن نفاذ عزيمتى
 تخبرك أننى لم ألقها
 أصبحت لا اشتاق إلا للندى
 وإذا السيوف قطمن كل ضريبة
 ويقول وهو مما يتغنى به:

قالت وقد نالها للبين أوجمه
 والبيت صعب على الاحباب موقعه
 اجعل يديك على قلبى فقد ضعفت
 قواه عن حمل ما فيه وأضلمه
 واعطف على المطايا ساعة نعسى
 من شت شمل الهوى بالبين يجمعه
 كأتنى يوم ولدت حيرة وأسى
 غريق بحر يرى الشاطى ويمنعه

وشعره كله مختار ظريف.

ويقول:

أما والذي لا يملك الأمر غيره
ومن هو بالسـر المكتـم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً
لإعلـانها عندي أشد وألم
وبى كل ما يـكى العيون أـقله
وإن كنت منه دائماً أتـبسم

وبعد ذلك رأيت من الحزامة أن لا أطيل سبب المحاجة، فخرجت بالصمت عن لا ونعم، ثم أمر لى الأمير بـعطاء سنى، ثم أذن لى فى الانصراف من حضرته.

* * *

جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة

وقبل أن أختتم هذه الرسالة أتى لك على شىء مما اعترضنا فى طريقنا بعد أن انفصلنا من بلرم قاصدين إلى المربة، فمن ذلك أنا ونحن ازاء جزيرة كبيرة تسمى سردانية ابصرنا أسطولا كبيرا قادما من ناحيتها، وقد علمنا أن هذا الاسطول هو اسطول المعز لدين الله، غزا هذه الجزيرة، وبلاد جنوه من بر الأرض الكبيرة، وغنم وسبى شيتا كثيرا يخطئه العد والإحصاء وما خام^(١) فى سائر غزواته عن اللقاء، على ما فى ذلك من الغرر، إذ إن وراء هذه البلاد من امم افرنجة عديد الذر، غير أن المعز يفعل ذلك الفينة بعد الفينة، لأنه يعلم أن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسيما الخسف وديت بالصغار^(٢) وإن أمة من الأمم تريد أن تكون عزيزة مهيبة لا بد من أن تغزو غيرها قبل أن

(١) خام أى جبن ونكص.

(٢) أى ذلل يقال للبعير إذا ذلته الرياضة بغير مديت أى مثل.

يفزوها الأغيار، ورضى الله عن علي بن أبي طالب إذ يقول في إحدى خطبه: ما غزى قوم قط في عُقر دارهم إلا ذلوا.

* * *

وهذه سردانية جزيرة كبيرة في غرب هذا البحر الرومي غزاها المسلمون حوالي سنة ٩٢ هجرية الموافقة سنة ٧١٠ ميلادية في عسكر موسى بن نصير وملكوها حيناً من الدهر ثم تركوا جبلها على غاربها ثم هم الآن يفزونها من وقت لآخر ويفنمون ويسبون لما علمت.

* * *

وقد مررنا فيما مررنا به من جزر هذا البحر بجزائر ثلاث متجاورات تسمى ميورقة ومنورقة وبابسة^(١) وهي جزائر عامرة مأهولة بالمسلمين يرجع أمرها إلى صاحب الاندلس، وعليها وال من قبله، ومن هنا تعلم أن المسلمين قد ملكوا ناصية هذا البحر الرومي بما فيه من الجزائر الكبيرة والصغيرة علاوة على جزائر بحر الظلمات «المحيط الأطلسي» كما أسلفنا لك، فسبحان المعز لمن يشاء، وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

* * *

تمت هذه الرسالة - وقد كتبت على متن البحر وبيننا وبين الميرية مسيرة يوم أو بعض يوم، وذلك في شهر جونية الرومي سنة ست وخمسين وتسعمائة الموافقة سنة خمس وأربعين وثلاثمائة هجرية.

(١) جاء في نفع الطيب: وجزيرة ميورقة مسافة يوم بها مدينة حسنة وتدخلها ساقية جارية على

الدوام وفيها يقول ابن اللبانة:
بلد أعارته الحمامة طوقها
وكساه حلة ريشه الطاوس
فكانما الانهار فيه مدامة
وكان ساحات الديار كثوس

وقال يخاطب ملكها في ذلك الوقت:

وغمرت بالاحسان ارض ميورقه
وبنيت ما لم يبته الاسكندر

وإلى هذه الجزائر يتسبب جماعة من العلماء والادباء ارجأنا ذكرهم إلى الرسالة الرابعة لأنها موضع ذلك.